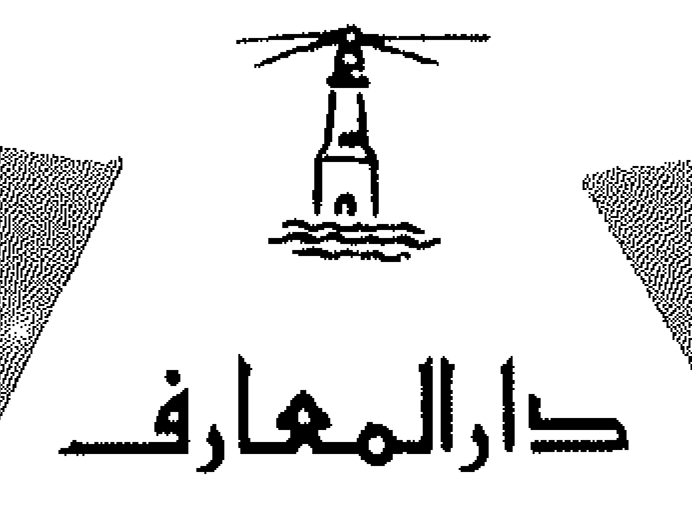
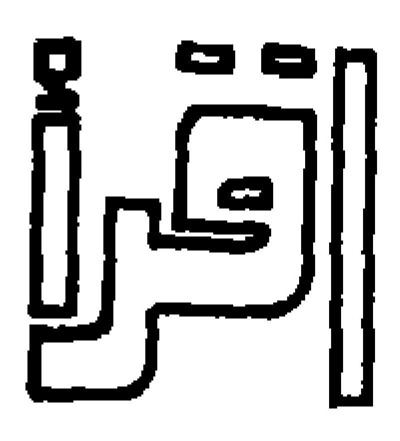
اقرأ

صوفي عبد الله

نساء محاربات



دار المعارف



[٩٩]

نساء محاربات

صوفى عبد الله

نساء محاربات

الطبعة الثانية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هـذه السلسلة ونشرهـا ، لم يفكـروا إلا فى شيء واحد ، هـو نشر الثقافـة من حيث هى ثقـافة ، لا يـريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشعـوب العـربيـة . وأن ينتفعـوا ، وأن تـدعـوهم هـذه القـراءة إلى الإستـزادة من الثقـافـة ، والـطمـوح إلى حيـاة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إلى المختصمين

في حقوق المرأة ووظائفها

أهدي هذه الكتيبة الشاكية السلاح

ص . ع .

كلمة فى الموضوع

١ ـ الشامى والمغربى

قد يكون أول ما يتبادر إلى الذهن عند الاطلاع على عنوان هذا الكتاب « نساء محاربات » ، هو السؤال الذى يجرى مجرى المثل : « ماذا جمع الشامى مع المغربى ؟ » ، لأن المفروض أن المرأة والحرب مقولتان مختلفتان ، اختلاف الشامى والمغربى ، إن لم يكونا أشد من هذين اختلافاً .

فصنعة الحرب ينهض بها الرجال ، ولها فى الأمم المتحضرة طائفة معينة تحترفها من الضباط والقادة ؛ لهم شاراتهم وأزياؤهم . . . أما النساء فقوارير رقيقة ، أو دمى لطيفة ، هى بالزينة أشبه ، وبالنعومة والامتثال ألصق ، ونسبتهن إلى اللعب والدعة أولى .

ولكن لفتة إلى ذوق المرأة تغنينا عن البحث الطويل فى علة جمع الشامى مع المغربى فى هذا الكتاب .

فهى تحب الملون الزاهى المزركش من الثياب ، وتحب زينة المواكب ودق الطبول ، فإذا لم تجدها قد تمرض أعصابها ،

فيقال فى الغرب المتحضر إن بها عقدة من رغبة مكبوتة ، ويقال فى الشرق الباقى على قدمه إن بها عفريتاً من الجن يكلفها ثياباً مزركشة « وحضرة » ترقص فيها على دق الطبول المتواتر العنيف . . .

وما لنا نذهب إلى هذا الحد فى طلب التعليل ، فقد يقال إن هذه حالات مرضية غير سوية . فأمامنا الحالات المألوفة كل يوم ، فإن غالبية النساء — إن لم يكن كلهن — لهن بصحبة الضباط ولع ، يحببن الظهور معهم فى المحافل ، والنظر إلى مواكبهم جماعات ، أو إلى خطرتهم فى الطريق فرادى . لأن ما فى ثيابهم من بريق وزينة وشارات مختلف ألوانها ، وما فى مواكبهم من أصوات موسيقية عنيفة ، يوافق ما فى مزاج المرأة من ميل إلى هذه الأشياء . . .

والشبيه يدرك الشبيه ، وينجذب إليه . لهذا لم يكن « مظهر » الجندية بعيداً كل البعد عن روح المرأة وهوى طبعها ، بل هو قريب منها قرابة لا تنكر .

٢ — الثياب العسكرية

ولكن رب قائل إن الجندية لا تقوم بالثياب وحدها ، بل بما تلبس النفس من صفات . وهو قول معقول ، ولكنه

لا يصمد للتحقيق والتعليل . فإذا كان المعول على الشجاعة الأدبية والصلابة والنزاهة والأريحية والتعفف ، فما أظن التاريخ يثبت للمرأة نصيباً من هذه الخلائق أقل من نصيب أشهر القواد منها مجتمعة أو متفرقة . بل أن إيجابية الرجولة قد لا يكون نصيب الكثيرين منها أرجح من نصيب المرأة . وإن التاريخ السري للأسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر ونابليون ليطلعنا من سلوكهم وطباعهم على ما يجافى المفروض فى سمت الرجال من مزايا وخلال . . .

فالطمع ، والخديعة ، ونكث العهود ليست من مزايا الشجاعة المثلى . فإذا عنى بالشجاعة مواجهة الخطر ، فتلك أولى أن تسمى « روح العدوان » وهى بالجبن أشبه من الشجاعة الحقة ، لأنها سليقة حيوانية وليست من مزايا الإنسان بما هو إنسان . . .

فمن التحامل والتجنى على المرأة أن يقال إنها محرومة من مقومات المحاربين — لا كما يصورها الخيال ، بل كما يصورها لنا الواقع التاريخى الثابت . فليس فيها بطبيعة تكوينها الخلقى ما يقصر بها عن شأو المشاهير من أهل حرفة الحرب .

وواضح أننى لا أقصد هنا ثلب الجندية من حيث هى وظيفة اجتماعية لها خطرها وشرفها الذاتى ، بل أقصد دفع

التجنى عن المرأة ، وعرض الحقيقة الملموسة التى طالما تجاهلها المتجاهلون، إذ يزعمون تنافى خلائق المرأة مع ما ينبغى لحرفة الحرب من صفات فعلية واقعية - لا صفات مثالية كان يجب أن تكون ، وينبغى أن تظل مثلا يطلب كما تطلب المثل . .

٣ - الاستعداد الخاص

فإذا كانت المرأة غير مكفوفة بطبعها عن إتقان صنعة الحرب ، أى ليس فى طبعها ما يحول بينها وبين هذا الإتقان ، فهل لديها الاستعداد الإيجابى لعمليات القتال ؟

جولة فى المواطن المتأخرة من المدن ، حيث يسود الجهل وتطلق للغرائز الفطرية العنان لا يكبحها كابح من التربية ، نجد الأفراد من الجنسين الرجال والنساء - يعمدون إلى التماسك والتضارب فى قسوة . ولكن مما لا شك فيه أن نسبة المشاجرات بين النساء أكبر مما يقع بين الرجال . فما أسرع ما تشتبك النساء فى المناوشات اللفظية ثم تبدأ عمليات شد الشعر ، والمصارعة الحرة على أوسع نطاق .

فإذا كانت روح العدوان مما يلزم للقتال ابتداء ، مع القدرة على احتمال الآلام تصيب النفس أو تصيب الغير على مرأى ومسمع ، فلا شك أن القول بخلو المرأة من ذلك

الاستعداد الإيجابى الخاص حديث خرافة . فهى إن لم تفق الرجل فى هذا الاستعداد ، فهى ند له على الأقل .

ومن السطحية الفارغة التافهة القيمة أن نزعم مع الزاعمين أن المرأة خلقت من رقة وصورت من رخاوة ولين . فإذا كان آدم قد خلق من طين لازب ، أى لين ، فحواء قد خلقت من عظم صلب عصىّ على الثنى ، هو ضلع آدم .

وإذا لم نكن ممن ينظرون هذه النظرة الدينية أو العرفية ، وكنا من أهل العلم الموضوعى الخالص ، فذلك العلم يقول إن خصائص الجنس ليست شيئاً متقابلا تمام التقابل فى الجنسين ، فالأعضاء الجسدية المميزة إنما هى أعضاء ظاهرية ثانوية ، وإن الذكورة والأنوثة تقوم على نشاط الغدد ، ومن صفات الأنوثة ما يتوفر فى الذكور ؛ الذكور بحكم أعضائهم الجسدية ، ومن خصائص الذكورة ما يتوفر فى الإناث ؛ الإناث بشهادة أعضائهن تلك . فالتأنث والاسترجال ظاهرتان طبيعيتان لا شذوذ فيهما علمياً ، وأن كانا من الشذوذ عرفاً ، لأن المجتمع يُحِبُّ أن يميز التمييز الواضح التام الذى تأباه الطبيعة أو تضن به فى بعض الأحيان .

فالمرأة — علمياً — غير مجردة تمام التجرد من خصائص الذكور فى دخائل التكوين العضوى وما يترتب على تلك

الخصائص من آثار فى الميول واتجاهات السلوك .

وإذا تركنا العلم والدين جميعاً ، واكتفينا بنظرة البصيرة السليمة أو البداهة السديدة ، وجدنا وظائف الأنوثة لا تتم إلا بزاد من القسوة السلبية ، فالحمل ومخاض الولادة لا يتيسر احتمالهما إلا بقابلية لامتصاص الألم والراحة إليه فى أعماق السريرة .

ومن هنا تميزت المرأة بالقدرة على التمريض ، لأن احتمال مشاهد الألم الفظيع وتأوهاته لا يتسنى إلا مع وجود تلك القابلية لامتصاص الألم والراحة إليه .

فإذا خالطت تلك القابلية الأنثوية نسبة زائدة من خصائص الرجولة ، صارت تلك الخاصة إيجابية ، وتجلت فى روح العدوان والراحة إلى تسبيب الآلام ، وتتفاوت درجات هذه الآفة ، من تنغيص الزوج « لوجه الله » إلى مشاكسة الجارات ، أو احتراف « الفتوة » . . .

فمن أى وجة نظرنا إلى المرأة وخصائصها ، وجدنا لديها الاستعداد الخاص لممارسة الحرب ، كامناً لديها غالباً ، وظاهراً للعيان فى بعض الأحيان .

٤ ــ حكمة الحريم

فما هى الحكمة التى من أجلها أقصيت المرأة منذ القديم عن صنعة القتال ، واختص بها الرجال ، فكانت المرأة والطفل « حريماً » يحرم الهجوم عليه والاعتداء على حياته فى شرعة الحرب الشريفة ، وإن جاز عليه الأسر ؟

والجواب حاضر إذا نظرنا إلى المزايا الحيوية التى تترتب على هذا « الحريم » . فالمرأة هى « وعاء النسل » ، وبها يناط تجديد النوع جيلا بعد جيل ، فإذا عزت المرأة عز هذا التجديد ، أما الرجل فليس الأمر فيه كذلك . فالقلة من الرجال قد تغنى عن كثرة ، والكثرة فى النساء لا تغنى عنها قلة . فإذا كثر النساء تعددت الزوجات واستمر النوع . أما إذا كثر الرجال وتعدد أزواج المرأة الواحدة فلا فائدة من هذه الكثرة فى الرجال من جهة زيادة النسل .

والطفل هو مادة هذا التجديد الذى تلزم له المرأة أكثر من لزوم الرجال . . . لهذا جعل الطفل كما جعلت المرأة « حريماً » يحمى ويحرم على السيف ويقصى عن صنعة القتال .

فالضرورة الحيوية ومصلحة النوع هى السبب الأساسى

فى إقصاء المرأة عن صنعة ميسرة لها . ولكن طول الممارسة أقر فى نفوس الرجال الزهو بما اختصوا به من حمل السيف ، حتى قال قائلهم .

كتب القتل والقتال علينـــا وعلى الغانيات جر الذيول ...

وهو قول صحيح ، ولكن لسبب غير الذى يفخر به الشاعر ، فما كتب القتل والقتال على الرجال لمزية ظاهرة أو استعداد تفردوا به ، بلى لأنهم أداة يمكن أن يستغنى النوع عن العدد منها بغير خسارة كبيرة . . .

وأحسب الأغنام والبقر لو أعطيت سليقة الشعر ، لقالت الخراف والثيران مقالة هذا الشاعر ، ولأخذها الزهو بأنه « كتب الذبح والطعام عليها ، وعلى النعاج والأبقار رعى الحشيش » . . . فإن الناس تذبح الديكة والخراف والثيرة وتستبقى الدجاجات والنعاج والبقر ، لأن فى القلة من الذكران غناء عن كثرة ، وليست كذلك الإناث من ذات ضرع أو ذات منقار . . .

هى مصلحة النوع وتوفير الاستمرار له فرضت قانوناً واحداً فى المجزر وفى ميدان القتال ، فى الحظائر وفى الخدور . وإنما هى عزة الإناث وهوان الذكور . . . ولا فخر فى هذا التقدير لفخور . . .

٥ ــ النظام والمساواة

والحكمة فى قيام «الحريم» هى حكمة الطبيعة نفسها ، حين منعت أن يكون سبيل الوجود هو سبيل الفناء ، فما به الشيء لا يكون به انعدامه . وطوعاً لهذا القانون صرف النظر عن تساوى الأنثى والذكر فى الاستعداد لصنعة القتال ، لأن النظام مقدم فى الحياة على ما عداه ، ولو جار فى ذلك على سنة المساواة .

والواقع أن هذا عدل وإن اكتسى ثوب الجور . فإن أى مجتمع ــ سواء فى ذلك مجتمعات الحيوان أو مجتمعات الإنسان ــ يقسم الأفراد على حسب الوظيفة الاجتماعية ، فالجنود مقدمون حيث الحاجة إليهم ماسة ، والأطباء مقدمون حيث يتفشى الوباء ، فالحاجة هى التى تخلق الوظيفة . لهذا لا ترى فى الريف صانع قبعات ، ولو خطر لواحد من هؤلاء أن يقيم فى قرية لأفلس أو مات جوعاً ، ولكنه فى شارع قصر النيل يشكو التخمة من كثرة العمل وكثرة المال . . . فليس التساوى فى الاستعداد لمهنة القتال معناه وجوب الترخيص باحتراف تلك المهنة لكل من لديه هذا الاستعداد . فإن وجود النوع مقدم على كل اعتبار ،

كما أن حب البقاء مقدم على كل مطلب لدى الأفراد .

ومصلحة النوع ، ومصلحة الجماعة ، هما الأساس فى التنظيم وتوزيع الاختصاصات والوظائف على الجنسين . فحجة المساواة فى المواهب لا تنهض سنداً للمساواة فى الوظائف والأعمال ؛ لأن التخصص لازم لبقاء المجموع وبقاء النوع . وزوال التخصص هو زوال النظام ، ولا بقاء لمجموع أو نوع أو موجود أيا كان بغير نظام تخضع له أفراده أو أجزاؤه .

ويلحق بهذا النظام الضرورى كل ما هو تربوى فى معيشة الإنسان . فلا معنى للتربية وهى بلجام يحد من غرب الاندفاعات الغرزية . إلا أن يكون ذلك تنظيما لسلوك الناس لكف الضار منه بالنوع أو بالمجموع . ولولا هذه « المصلحة العليا » لما وجدت التربية ، لأنها فى حد ذاتها قيد ، والقيد ثقيل ، لولا أنه أهون ضررين . . .

ويلحق به كذلك تخصيص المرأة بما يتعلق بإيجاد النوع وحفظه ، أى بالأمومة . وترك الأعمال الخطرة للرجل . ومن هنا جعلت المرأة ربة البيت ، لأن هذا المكان أصلح لوظيفتها الطبيعية تلك . وتركت غرائز المقاتلة فيها تبحث لها عن متنفس غير مباشر ، فى تنغيص الزوج أو الكيد للجارات

والضرائر والحماة . فالاستعداد للحرب عضو لا حاجة إليه لدى المرأة فى التاريخ الاجتماعى الحديث ، كالزائدة الدودية لدى الإنسان سواء بسواء . وذلك الاستعداد كتلك الدودة إذا أصابة تضخم أو التهاب كان شيئاً خطيرا تتعرض له حياة صاحبته للهلاك . . .

فليس كف المرأة عن مهنة لديها الاستعداد التام لها عن تعسف من الرجال ، بل هو لمصلحة النوع التى يخضع لها الرجال كما تخضع لها النساء على السواء .

٦ — الجنس يفرض نفسه

وكما أن مصلحة النوع هى صاحبة الكلمة العليا فى أفراد النوع ؛ كذلك هى صاحبة التقسيم الثنائى إلى جنس الذكور وجنس الإناث ؛ مع ما فى ذلك التقسيم من تعسف من وجهة النظر العلمية .

فالأنوثة والذكورة شيئان نسبيان فى واقع الأمر ، وليس هناك ذكر ١٠٠٪ ولا أنثى ١٠٠٪ . وإنما هى مخلوقات تغلب عليها هذه الصفات أو تلك . وما أعضاء الجسم المميزة ، إلا الخواص الجنسية الثانوية لا الأولى ، فهى كالعنوان الذى قد يأتى تحته ما ليس منه فى كثير أو قليل ، لهذا يقع فى

البشر رجال مؤنثون ونساء مسترجلات . . كما يحدث أن تشترى من مصنع غير منظم تمام التنظيم زجاجة من شراب البرتقال ، أو هكذا تزعم البطاقة المثبتة فوقها ، فإذا هى فى الحقيقة تحوى شراب الورد أو الرمان . . .

ولكن الحاجة العملية إلى تقسيم غايته « حفظ النوع » تجعل الإخصاب من جانب وحمل الأجنة من جانب آخر هما أساس التمييز بين الجنسين وإضافة الوظائف الطبيعية والاجتماعية لكل منهما .

وبهذا تفرض الأمومة على مخلوق له طبائع الرجال لمجرد أنه يحمل « عنوان التأنيث » . . .والعكس صحيح . . . فالجنس يفرض نفسه ، ويفرضه النوع لمصلحته العليا ، ولو تساوت الاستعدادات للأعمال الواحدة فى أفراد من هذا الجنس وذاك . . .

٧ – العبقرية فوق الجنس

ولكن خصائص الجنس مهما فرضتها الطبيعة ، ومهما تشبث بلواحقها المجتمع لمصلحة النوع العليا ، لا يمكن بحال من الأحوال أن تتغلب على العبقرية ، لأنها مصلحة

للنوع أعلى من المصلحة التى ينشدها إذ يفرض وظائف الجنس .

فالعبقرية فى أى فرد من أفراد الجنسين قدرة خارقة للمعهود فى أفراد النوع على إتيان عمل من الأعمال . فهى تعبير من الطبيعة عن نموذج لهذا النوع أرقى من النمط الموجود فعلا . ولهذا يقال إن العبقرى شىء غير مفهوم كل الفهم من أبناء جيله ، وأنه يسبق زمانه .

والمصلحة التى يجنيها النوع من وجود العبقرى ، أثمن من مصلحة الاستمرار الآلى ، فذلك الاستمرار يضمنه أى فرد ، ولكن الترقى أو التكمل لا يمثلهما إلا العبقرى من أفراد النوع . فالعباقرة قوى دافعة فى النوع ، ولهذا يكون وجودها شيئاً مقدماً على خصائص الجنس التى يفرضها النوع لاستمراره ويفرضها المجتمع لحفظ كيانه .

ولهذا متى ظهرت العبقرية فى أحد الجنسين — ذكراً أو أنثى — كانت العبقرية فيه كافة لخصائص الجنس ، إذ ترتفع به فوق آدم وفوق حواء ، آدما كان فى جنسه أو حواء . . .

٨ ـ النساء المحاربات

فالمرأة إذ تحارب لا تخرج عن استعدادها الأصلى ، ولكنها ـ بفرض من مصلحة النوع العليا ـ لا تفعل ذلك غالباً إلا لأنها لم تعثر بآدم الذى يشعرها أنها حواء ويفرض عليها إرادة النوع ، فإذا وجدته أفاءت إليه وأخلدت . وإما لأن فحولة آدمها تستثير فيها الفتوة الزائدة بالطبيعة فى مزاج تكوينها ؛ وإما لأنها فوق آدم وفوق حواء جميعاً بعبقرية فيها...

وتلك هى دعوى هذا الكتاب

مصر الجديدة صوفى عبدالله

مايو ١٩٥٠

١ ـ نحو آدم

الشقيقتان الباسلتان

تيريز الجسور

١ – الشقيقتان الباسلتان

« أين اسماهما بين الأسماء المنقوشة على الرخام فوق، أقواس النصر ؟
« أين صورتاهما بين الصور المعلقة فوق جدران فرساى ؟
« أين تمثالاهما على حدودنا التى روتاها بدمائهما ؟ »

* * *

بهذه الكلمات الفخمة الرنين يستهل الشاعر لامرتين قصة هاتين الشقيقتين : « فيلستيه دى فيرنج » و « تيوفيل دى فيرنج » . . . مستلفتاً التاريخ إلى هاتين البطلتين المجهولتين ، على عظمة المثل الذى ضربتاه فى الأريحية والإقدام والبسالة .

إنها قصة البسالة النادرة لا فى الميدان فحسب . بل وأيضاً فى معترك الأريحية الفردية التى لا يصمد لأتاوتها الباهظة كثير ممن يصمدون فى حومة الوغى ويظفرون فيها بالألوية والأكاليل .

فمن هما هاتان الشقيقتان ؟

لم تخرجهما مدارس الحرب التى تخرج المحترفين من أهل الجندية . . .

ولم تخرجهما مجالس البلاط التى تعقد فى القصور فلا يتخرج منها إلا ذوات الأناقة والسمت . . .

بل خرجتا على عهد الثورة الفرنسية ، كما انبثقت تلك الثورة نفسها ، من حيث لا يقدر خروج ولا انبثاق : فلا هما من أهل الصنعة ، ولا هما من أحلاس البطالة والجدة . وإنما هما فتاتان من الطبقة المستنيرة التى ورثت مزايا الأصل العريق دون نقائص الانحلال التى تلازم أعقاب السلالات ، ثم زادتها قراءة ڤولتير وروسو تطلعاً إلى المثل الكريمة وازورارا عن الفوضى والفساد اللذين كانا معهودين فى مرافق الأمة كلها لذلك العهد ، فكانت تلك الطبقة المثالية المستنيرة هى رائد الثورة ، ثم كانت هى وقودها فى آخر المطاف ، حين استولى على قيادالثورة شيطان الشهوات الذى يركب رؤوس الغوغاء متى أطلق لهم العنان . . .

أجل ؛ هما من تلك الطبقة ولا مراء ، التى كانت تعهد فى الريف الفرنسى السليم البنية ، أكثر مما تعهد فى تلك العاصمة التى نخز دعائم مجتمعها سوس الاستبداد والاستهتار : مدينة النور ، باريس . . .

فوالدهما « لوى جوزيف دى فيرنج » من أصل ألزاسى ، بعيد فى نشأته عن مجون باريس ، وهو بطبعه الهادئ وذوقه الأدبى ، يؤثر الإخلاد إلى القراءة على كل أمجاد السياسة والحرب . لهذا ترك الجندية بعد أن ساهم فى حروب هانوڤر

(١٧٥٥ — ١٧٦٢) بنصيب مشرف ، وانصرف إلى الأدب والثقافة ، وعقد صلات مودة متينة مع جبار الأدب الفرنسى وبطل حرية الفكر فى أوربا بأسرها لذلك الوقت ، وهو « ڤولتير » ، حتى أن الأديب العظيم دعاه إلى زيارته فى قصره بفرنى ، فمكث فى صيافة ڤولتير عاماً كاملا .

وقد تزوج من فتاه من بنات الريف أيضاً ، أنجبت له بطلتينا فى عامى ١٧٧٣ ، ١٧٧٦ ، وثلاثة أولاد آخرين ثم انتقلت إلى العالم الآخر .

وبين العناية بالزراعة والعناية بأولاده هؤلاء ، كان يجد فراغاً من الوقت للاهتمام بالحركة الفكرية ومتابعتها عن كثب ، حتى إذا كانت الثورة الكبرى سنة ١٧٨٦ ، كان على رأس « الحرس الأهلى » فى « ڤالنسيين » موطنه ، وأقام النظام والأمن حتى حان الوقت الذى وجهت فيه قوات هذا الحرس لملاقاة الأعداء الزاحفين على أرض الوطن الفرنسى باسم حماية التاج وحفظ حياة الملك والملكة من عدوان الثوار .

وفى هذا الحين أحست الشقيقتان « ڤيلستيه » و « تيوڤيل » بالشوق إلى الجندية يجرى حاراً فى عروقهما الفتية . وكانت كبراهما « ڤيلستيه » فى السادسة عشرة . أما اختها « ثيوفيل » فلم تكن تتجاوز الثالثة عشرة . . .

ولكن هل هو الشوق إلى الجندية فى ذاتها ذلك الذى أحستا به يفور فى جسديهما ؟

أغلب الظن أنها ليست « حرفة » الجندية ما تعشقتا ، وإنما هى « روح الثورة » التى كانت تتمخض بها فرنسا فى ذلك الحين ؛ لم يكن لفتاتين نشأتا فى ظل أب كأبيهما ، وفى جو من حب الحق والحرية والإيمان بهما ، إلا أن تحسا بتلك الروح تتقمص جسديهما الفتيين . ولو كانتا فى باريس لخرجتا فى المظاهرات التى شاركت فيها الباريسيات ، حين الهجوم على الباستيل ، وحين الهجوم على فرساى . . . ولكنهما فى الريف ، وليس من منفذ للحماسة الفائرة إلا ميدان القتال ، ولا سيما فى « ڤلانسيين » التى تتاخم الحدود المهددة بالغزاة الغاصبين . . .

ومهما يكن من شىء ، فقد خفت الفتاتان ذات ليلة — وقد رحل أبوهما وأخوهما فى صفوف الحرس الأهلى المحارب — فلبستا ملابس الرجال ، وحملتا السلاح ، وانخرطتا خلسة فى صفوف الكتيبة التى يقودها والدهما .

وقد ظل هذا الوالد فترة من الزمن جاهلا تمام الجهل أن بنتيه الصغيرتان فى عداد أولئك النفر من الجنود الذين يوجههم كل ليلة للقيام بأعمال الكشف والتربص .

ولكن هل جهل جنود الكتيبة حقيقة الفتاتين ؟ . . .

كلا . . .

فكيف كتموها إذن عن قائدهم ؟

والجواب عند « روح الثورة » التى دفعت فتاتين ضعيفتين إلى حمل السلاح ، فإنها أيضاً قد أشعرت الرجال من الجنود — وهم من أبناء القرية وما يجاورها — أن الغرض النبيل الذى دفع البنتين إلى هذا الموقف جدير بالتقدير بل التقديس ، لأنه هو هو الغرض الذى دفعهم جميعاً إلى استبدال المدفع بالرفش والمنجل حين دق ناقوس الخطر ودعا الداعى للذود عن الدمار . . .

وهكذا تواطأ الجنود على السكوت ، لما أثاره وجود البنتين من الحماسة فى صدورهم ، حتى إذا انصرم الليل ، عادت الفتاتان إلى الدار ، حيث يلفيهما أبوهما عند عودته ، وعليهما ثيابهما المعهودة ، تقومان بمهنة البيت . فلا يخطر له ببال أنهما كانتا بالأمس تحت إمرته تخوضان خطوط النار إلى مكامن الهلاك .

وظل أمرهما خافياً على والدهما حتى حضر إلى موضع الكتيبة قائد من قواد الفرق المجاورة ، هو الجنرال « دى برنونفيل » ، وخطر لذلك القائد أن يلقى فى الجنود كلمة

تحفزهم إلى مزيد من الثبات والإقدام ، فلمح شابين يافعين بين الجنود ، يتواريان عمدا خلف ظهور رفاقهم الكبار ، ويتحاشيان بشكل ظاهر أن تلتقى أنظاره بأنظارهما ، ويتنقلان من موضع إلى موضع ليهربا من نظراته الفاحصة . فأدهشه هذا الخجل ، لأن من يحمل السلاح ويعرض نفسه لوقع الرماح حرى ألا يضيق بوقع النظرات من ولى حميم لا من عدو محروب . فتقدم إلى « دى فيرنج » أن يدعو هذين الشابين من رجاله ، فأفسح الجنود لهما ممراً حتى وصلا إلى مكان القائد ولكن أباهما لم يعرفهما أيضاً ، لأنهما كانتا فى سمت تنكرى لا يبارى ، لا من حيث الزى العسكرى فحسب ، بل من قناع الدخان والطين والبارود الذى كان يكسو وجهيهما ، وحتى الشفاه القرمزية النضرة كانت قد سودتها الطلقات التى كانت فى ذلك الزمان لا بد أن تمزق رؤوسها بالأسنان قبل أن توضع فى البنادق . . .

فلا عجب أن ألفى دى فيرنج نفسه أمام شابين لا يعرفهما ، ولم يرهما من قبل ، ولم يكن يدرى أنهما فى عداد جنوده ، فسألهما بحدة ظاهرة .

— من أنتما ؟ . . .

فكأنما كان هذا السؤال إشارة البداية لموجة من التهامس ،

والتراشق بالنظرات والابتسامات ، سرت بين الجنود ، مما زاد فى دهشة القائد الأصيل والقائد الزائر ، وأيقنت الفتاتان أن سرهما قد انكشف لأبيهما ، ففارقتهما صلابة الجندية وارتدا فتاتين كالقوارير التى ينبغى ألا تمس إلا برفق شديد وتلطف ، فاحمر وجهاهما ثم اصفرا ، ولم تلبثا أن انفجرتا باكيتين وقد خرتا على أقدام أبيهما المأخوذ سائلتين إياه أن يغفر لهما ما كتمتا عنه من شأنهما ، وقد أخذتهما رعدة الخوف والخجل من غضبه أمام « رفقاء السلاح » ، فجرى دمع الرجل ، وأقبل على فتاتيه يعانقهما فخوراً ببسالتهما النادرة ، وقدمهما مزهوا إلى الجنرال دى برنونفيل الذى سجل إعجابه بهما فى رسالة رفعها إلى المؤتمر الوطنى متخذاً منهما دليلا لا يجارى على تغلغل روح الثورة الوطنية وتأصلها من نفوس المواطنين . . .

ومنذ هذه الساعة انخرطت الشقيقتان علانية فى سلك الجيش الوطنى ، ولحقتا بقيادة « ديموربيه » الذى ترك وزارة الحربية ليتولى بنفسه قيادة جيش الشمال الذى كان مركز قيادة أركان حربه فى فلانسيين .

وتعرض معسكر ديموربيه فى « مولد » لهجمة مفاجئة ، ردها الجنود والمتطوعون ، وأبلت الشقيقتان فى تلك المناوشة

بلاء حسنا، حتى أدهشتا الجميع بما أبدتاه من ضروب البسالة والبراعة فى استخدام السيف .

وقد أدرك مورييه بما خطر عليه من ذكائه إلى أى حد يمكنه أن يستخدم هاتين الفتاتين فى استنهاض الهمم وحفز الجنود على خدمة القضية الوطنية رغم قلة العدة ، ونقص الضباط المدربين ، لكثرة من هاجر منهم ، لأن جيش فرنسا الملكية كان معظمه ، من غلاة الأرستقراطيين ، أو من يحبون أن ينظر إليهم هذه النظرة . فقد اتسعت شهرة الفتاتين بعد هذه المعركة الدفاعية ، فاستدعاهما إليه وعينهما فى ياورانه ، كما ضم والدهما وشقيقهما إلى هيئة أركان حربه .

وانتقل ديمورييه بآل دى فيرنج الأربعة إلى قطاع الأرجون ، حيث دارت تلك المواقع الخالدة التى ثبتت أقدام الثورة الفتية ، واعتبرت معجزات فى باب الحرب ، لما سجلته من غلبة القلة الساذجة على العدو العديد الكامل الأهبة والتدريب : وتلك هى مواقع « فالمى » و « بجيماب » و « فتح بلجيكا » . . .

* * *

بواعث وطنية ، وشجاعة عسكرية ، ما فى ذلك شك .

ولكن . . .

ولكن هل قامت هذه الصفات برأسها ، كما تقوم فى

نفوس المحاربين من الرجال ، أم هى لم تحجب خصائص الأنوثة فى قلب هاتين الفتاتين ؟ . . .

لا يلبث بنا هذا السؤال فى حيرة تطول ، فإن شهادة لامرتين لا تلبث أن تأتينا بالجواب الحاسم .

فالكبرى « فيليستيه » قد لزمت « الدوق دى شارتر » ، وهو من الشباب العريق المستنير الذين ناصروا المبادئ الجديدة ، فهى لا تفارقه لحظة مهما اشتد أوار المعركة . وأما الصغرى « تيوفيل » فقد جردت نفسها لتبليغ أوامر القائد العام « ديموريية » إلى القائد الشيخ الجنرال « فيران » ، وكانت تلزم جواره إذا حان وقت الهجوم على معاقل الأعداء ، فكانت تبدو بجانبه فى مقدمة الصفوف ، وسيفها فى يدها ، على صهوة جوادها ، وقد شرعته للجيش الذى استعرت فى قلبه الحماسة ، فيزيدون إقداما على إقدام .

وهكذا تكون جرأة النساء : تشتد مهما تشتد ، ويرتفع مهما ترتفع ، ولكنها لا تستغنى بالمبدأ العام والعقيدة المجردة عن نموذج فردى متشخص . فى صورة رجل بين الرجال ، تركز فيه قبلة جهودها وتوثبها .

ففى الحين الذى تبدت فيه الفتاتان للجيش كروحين من أرواح الملائكة التى يقال إن الله يعز بها جنده المنافحين

عن دينه ، حتى قيل إنهما ليستا من البشر ، بل هما معجزتان على الحقيقة لا على المجاز ، فالحرية والوطنية ليستا أقل كرامة على العزيز الحكيم من قواعد الدين ونواهيه . فى هذا الوقت الذى أصبحت فيه الفتاتان أسطورة تتناقلها الأفواه فى تهيب وإعجاب ودهشة ، كانتا تصدران — دون وعى منهما — عن طبيعة الأنثى التى لا تستغنى عن رجل يكون قطباً لبواعثها مهما حلقت فى أعنان السماء .

فالصغرى « تيوفيل » داعبت شيخوخة قائدها الواهنة غريزة الأمومة فيها فاستثارتها ، فهى تلزمه لترعاه وتشد أزره ، ولتخفف عنه وتحمى ظهره : فعندما أصابت جواده فى معركة « جماب » رصاصة صرعته من تحته ، كانت ذراع « تيوفيل » أقرب إليه من ارتداد طرفه ، فسندته وحمته من سقطة لا تؤمن عواقبها على عظامه العتيقة ، ثم لم تلبث أن هاجمت فى نفس الموقعة الفرقة المجرية ، على رأس حفنة من الفرسان ، فصرعت بيدها فارسين من الأعداء برصاص غدارتها ، ووضعت يدها على قائد الكتيبة فجردته من سلاحه وساقته أسيراً بين يدى قائدها المبغوت !

أما الكبرى « فيليستيه » فكانت دائماً تتقدم الدوق دى شارتر ، وعنان جوادها بين أسنانها ، وفى كلتا يديها غدارة

ينطلق منها الموت ، فتهجم فى المعمعة هجوم الكواسر .

وعرضت فى المعركة بادرة تدل على هزيمة « قلب » الجيش ، فأقدم الدوق دى شارتر ، والدوق دي مونبتسييه وفيلستيه دى فيرنج على هجوم ثلاثى شقوا به فرجة بين صفوف الأعداء بطلقات مسدساتهم ، فكان صوت القائد الشاب ، ومنظر المحاربة الشابة كفيلين باستنهاض الهمم وتحويل الجنود من النكوص إلى الهجوم ، حتى أجبر النمسويون على الفرار ، وانقلبت الهزيمة إلى نصر أبلج كوضح النهار . . .

وليس من الصعوبة بمكان أن نعرف أى الأوتار فى قلب كبرى الشقيقتين « تيوفيل » قد داعبته أبهة الدوق الشابُ الذى كان على رأس فرقتها فهى لا تفارقه فى وقت الخطر ، وتشاركه المجازفة والنصر .

امرأتان باسلتان . . .

ولكنهما امرأتان . . .

وفى ذلك الذى حدث فى أعقاب تلك المعركة ما يضيف إلى هذا الرأى دليلا وأى دليل . فقد اصطحبهما ديموريبه فى زيارة ميدان الموقعة تقديراً لبطولتهما النادرة وتكريماً لهما . فما أبصرتا الجثث المشوهة عن يمين وعن يسار ، والأشلاء المتناثرة فى كل مكان ، وسمعتا أنين الجرحى والغرقى ، حتى

فارقتهما صلابة الجنود ، وانطلقتا تبكيان . . . تبكيان على من كان لهما القدح المعلى فى قتلهم والتنكيل بهم

امرأتان باسلتان . . .

ولكنهما امرأتان . . .

* * *

ودخلت الجيوش الفرنسية « بروكسل » حاضرة البلجيك ، ولكن النمسويين لم يكفوا عن المناوشة والكر والفر . واقتضى الأمر أن يعهد « ديموريه » إلى « فيلستيه دى فرنج » بحمل أوامر له إلى بعض النقط الأمامية . فانطلقت ومعها كوكبة صغيرة من الخيالة . ويظهر أن الحماسة التى تلازم أحداث السن قد حملتها على غير ما تأمر به الحيطة فى مسالك الحرب . فإذا هى تقع ورجالها فى كمين نصبه النمسويون . فقاومت ورجالها مقاومة حامية ، وتمكنت من الإفلات بعد لأى فأطلقت لجوادها العنان . . . وفى جعبتها أوامر القائد إلى وجهتها المرسومة . ولكنها ما قطعت مائة ركضة حتى جذبت عنان جوادها . . . وقد أضحت وحيدة بعد أن تخلف فرسانها فى اشتباكهم مع الكمين النمسوى — لأنها رأت ضابطا شاباً من ضباط جيش الثورة بين أيدى ثلة من الفرسان النمسوية تكيل له الضربات حتى كادوا يقضون عليه القضاء

الأخير . . . ولم تأبه للخطر الجديد ، بل هجمت على أولئك الجنود فقتلت منهم اثنين ، ولاذ سائرهم بالفرار ، واردفت الضابط الجريح على جوادها فحملته إلى مستشفى الميدان ثم انطلقت دون توقف إلى حيث أبلغت أوامر القائد التى كانت تحملها . . .

وكان الضابط الجريح بلجيكى الجنسية، ولكنه ككثير من الأجانب المستنيرين ممن كانوا يرون فى الثورة الفرنسية رمزاً للحرية ، حرية جميع الأوطان المستعبدة بلا استثناء . . .

أما هذا الضابط البلجيكى الذى أنقذته فيلسيتيه من الموت ، فقد كتب له أن يشفى من جراحه ليشكو من جراح أبعد غوراً أصابت سويداء قلبه الشاب من سهام عينى منقذته الحسناء ؛ فما ترك خدمة الجيش حتى اندفع يبحث عنها أينما ظن لها وجود ؛ فإن هذه الفارسة التى تشرق وجنتاها بوضاءة الشباب والجرأة والحماسة قد استحوذت على جماع نفسه أيما استحواذ ؛ فانطبعت فى نفسه صورتها وهى تلوى بالفرسان أيما إلواء وتشتت شملهم لتخلصه من بين أيديهم . وإنها لصورة لا تنسى إذا مرت بحياة امرئ مرة . ولو لم يكن هو الغنيمة المستنقذة . . . فما بالك وهو الذى من أجله تحدت الهلاك وجابهت الفئة الكبيرة بسيفها الفرد ؟

وفى هذه الأثناء كانت الثورة قد بدأت تأكل أبناءها الواحد منهم تلو الآخر ، وكان دور « ديموربيه » قد حل . فقدم عليه مندوبو الجمعية التشريعية يستدعونه للمثول بين يديها ، ليتخذ عن طريقها سمته إلى المقصلة . . . كما سلك تلك الطريق أساطين من قبل . . .

وخرج الرجل الى باب خيمته وصاح بصوته الجهير :

— إلى يا فرسان . . .

وأعانه الفرسان ، واعتقلوا رسل الجمعية ، واستعد القائد الكبير للفرار بجلده مع نخبة من صحبه . فقد أهدرت الجمعية دمه بتهمة التآمر على إعادة الملكية ، وتنصيب الدوق دى شارتر الشاب على عرش فرنسا . . . كما اتهمه البعض بالخيانة العظمى ، والتواطؤ مع أعداء الوطن من دول أوربا الوسطى . .

فهل تتخلى الفتاتان عن القائد الطريد ؟ . .

قد يفعل هذا رجل لا يعرف إلا المبدأ العام . . . أما المرأة ، فلا تزال المشخصات الجزئية عندها هى الواقع الملموس المحسوس ، الذى يطغى على كل اعتبار نظرى .

فكيف وهو متهم بصداقة دوق دى شارتر الشاب الوسيم ؟ وكيف والفئة الهاربة من خيرة عشراء الميدان وقواده الذين طالما كان لوائهم ظلا لسيوف الفتاتين وبلائهما المجيد ؟ . . .

امرأتان باسلتان . . .

ولكنهما امرأتان . . .

ولهذا اختارتا الرجال وآثرتاهم على المبادئ المجردة التى لم تكن بشراً سويا تربطهما به الألفة ، والمودة المتبادلة والمشاركة فى الشدة والبأس .

وكم كان لهما فى هذا الهرب من أثر جليل ، فقد تبع رجال الحكومة الهاربين واشتبكوا معهم ، ولولا شجاعة فيلستيه وأختها « تيوفيل » لوقع ديموربيه بين أيدى مطارديه ؛ فقد سقط تحته جواده أثناء الفرار ، والعدو فى أعقابهم ، فاستدارت تيوفيل وكرّت على اعقابها لتواجه المطاردين فتصدهم عنه ، فى حين ترجلت أختها فيلستيه فى أسرع من لمح البرق الخاطف عن جوادها وقدمته للجنرال فامتطاه ونجا بنفسه . ثم تمكنت الفتاتان من النجاة بعد ذلك حيث عبرتا الحدود إلى هولندة ، لأن الجمعية الفرنسية اعتبرتهما خائنتين . وفى هولندة عادتا إلى زى النساء ومشاغلهن ، إلا أن الحكومة الهولندية آثرت أن تجامل فرنسا بإعلانهما بالرحيل . فلاذتا بولايات ألمانيا ، ولكن ما من ولاية منهما قبلتهما فى أراضيها ، فعادتا إلى هولندا حيث لقيتا عنتا شديداً فى البقاء هناك .

ولكن ما تغيرت الحكومة ، وتحولت إلى « قنصلية » ،

حتى أذن لهما فى العودة إلى فرنسا . . . فعادتا إليها فى زى النساء التى لم تغيراه بعد ذلك قط . ولم يعرف عنهما بعد ذلك إلا أنهما تزوجتا فكانتا من خير الزوجات والأمهات . . .

ولم يكن زوج فيلستيه إلا ذلك الضابط البلجيكى الذى استحييته وأسرت قلبه بلحاظها وبسالتها جميعاً .

امرأتان باسلتان . . .

ولكنهما امرأتان

فى البيت وفى الميدان ، سيان . . .

فبواعث بطولتهما وأهدافها هى هى بواعث حواء وأهدافها منذ أول الزمان :

لا غنية لها عن المثل المحسوس الذى يخاطب فطرتها أنثى أو أما ، ومن هذا الطريق تكون تابعة لا متبوعة ، ميالة إلى البذل والفداء والتصدى للآلام الجسام . . .

٢ — تيريز الجسور

وفى نفس هذه الفترة التى ظهرت فيها الشقيقتان ، حين اتجهت عواطفهما نحو ميدان القتال قبل أن تجدا «آدما» الذى تخلدان إليه إخلاد الأبد ، ظهرت فتاة أخرى اتجهت نفس الاتجاه قبل أن تجد « آدمها » . ولكن على اختلاف

يسير ، فصاحبتنا هذه المرة فتاة قليلة الحظ من الجمال ، قليلة الحظ من عطف الأسرة . أفسدت تربيتها فشبت مع صبيان الشارع كما ينشأ الصبى الشرس من صبيان الأزقة ؛ فكانت على أنوثتها الكامنة ذات « قشرة » صلبة من الذكورة إذا استقام المجاز ، لهذا تأخر بها عن صاحبتيها وقت التقائها بآدمها ، ولكنها مثلهن . لم تفلته إذ وجدته ؛ بل ألقت من يدها سيفها ورمحها لتتخلص له بقلبها ووجدانها جميعاً .

والحق أن حياة تيريز الجسور من أحفل حيوات النساء الغريبات الأطوار بالمتعة والطرافة ؛ ولكنها كما سترى لا تصلح قدوة للنساء لمجرد هذه الطرافة والغرابة ، فهى شىء ينظر إليه ولكن لا يقتدى به .

ولدت تيريز عام ١٧٧٤ فى ريف فرنسا عن أب طحان وأم ودعت الحياة إذ منحتها الحياة . ولم يلبث الأب أن تزوج إمرأة قوية البنية سليطة اللسان طويلة اليد ، وكانت لها عند الكأس ترة ، حتى إذا نقعت غلتها وشغشعت الخمر فى دماغها جعلت زوجها — أبا تيريز — أمثولة للناس بما تكيله له من الضربات والشتائم حتى يجتمع عليهما الخلق .

وأى الناس كانت تيريز فى هذا الوقت ؟

كانت فتاة شيطانة دون التاسعة من عمرها ، يضج أهل

الحى قاطبة من فصولها الجريئة ، فهى لا تهاب شيئاً ، ولا تبالى بأحد . همها معاكسة الناس واستثارة غضبهم وسخطهم، تجد فى ذلك لذة .

وإنها لتذكر – فى مذكراتها – أنها كانت تغرم بركوب الخيل ، وهى فى تلك السن الصغيرة ، وأن هدفها بالحصى لا يخطئ ، وأن ضربتها به قاضية ! وأن جندياً من سلاح الفرسان كان يتردد على بيتهم فى ذلك الزمن بملابسه الجميلة التى تستهوى ذوى الأسنان الصغيرة ، فكانت تميل إليه وتدعوه زوجها ، وكان هو يدعوها عروسه الصغيرة . وكان يطيب لها أن تضع خوذته اللامعة على رأسها وتنظر إلى طلعتها فى المرآة وهى على هذه الحال .

فهى منذ هذه السن تتهيأ – دون أن تدرى – لاتجاهها الغريب فى الحياة : فأبوها مستضعف أمام امرأته ، وذلك حرى أن تختمر فى سريرتها أمنية ضمنية أن تكون رجلا قوياً لتعوض هذا الضعف فى الأب الذى تلتمس فيه كل فتاة القوة والحماية ، وتحب أن ترى فيه الكمال مشخصاً ، فكل فتاة بأبيها معجبة . ثم هذه الثياب الجميلة التى لا تخطئ أن تداعب خيال كل فتاة ، بل كل طفل ، أعنى ثياب الفرسان المزركشة ، التى لا تفترق عن معنى القوة

والبأس فى أخلاد الصغار . وأخيراً النزعة إلى المبادأة بالعدوان والتحرش والميل إلى التشفى بآلام الناس ، كل تلك تجتمع فى مهنة الحرب فالبذرة قد وجدت منذ هذه السن تربة صالحة فى غفلة من وعى الفتاة ومن حولها من الأهل أو العشراء . حتى إذا مات أبوها وهى فى التاسعة من عمرها — مات غما من سوء ما لقيه من زوجته العاتية فيما يلوح — انكسرت آخر حلقة فى السلسلة التى كانت تحد من اتجاهاتها وتقيد حريتها فى الاختيار أو الانطلاق على سجيتها . ولكن سن التاسعة كانت أصغر من أن تتيح للبذرة أن تنمو وتؤتى أكلها الحلو أو المر ، وأن تتعرف الفتاة أى سبيل تسلك فى الحياة . ولكنها بدأت تنحو النحو الذى يوائم تكوينها النفسى فى غير احتجاز .

فبعد وفاة أبيها أخذها عم لها لتعمل فى مغسل ، وفى هذه الفترة تعرفت بفتى يكبرها بسنة واحدة — عمره أحد عشرة سنة — هو « كليمان ستر » — وأصبح صاحب لهوها وشغبها المفضل .

ومن « ستر » هذا ؟

إنه غير غريب عن جو الجندية وثيابها وموسيقاها ، بل إنه حامل الطبلة فى الفرقة السويسرية بالبلدة ! وفى صحبة هذا

الفتى حلا لها أن تقيم الدنيا وتقعدها بالشغب والاعتداءات على ممتلكات الناس وحيواناتهم حتى أخذها عمها مرة أخرى إلى « آفينيون » وحاول أن يلحقها بمحل نساج لتتعلم عنده النسيج والرفو ، ولكن هذا العمل الذى يسمرها إلى المقعد ساعات طويلة لم يصادف هوى فى نفسها ، فهى لا ترضى بديلا عن حياة القفز والنط والتحرر التى ألفتها كما يألفها أى غلام أفاق . . . وكانت سنها فى هذا الوقت قد بلغت الخامسة عشرة ، وهى سن تعتبر فاصلة عند الفتيات فى إبراز خصائص الجنس الثانوية . ولكن ما تلك إذا قيست العوامل التى تكونت فى نفسها دون وعى منها لكى تتجه إلى التشبه بالرجال ، بل إلى الجندية بالذات ؟

ولكن ينبغى ألا نخطئ فى تأويل هذا المسلك : فهو ليس مسلك كراهية « آدم » والنفرة منه ؛ بل إنه على العكس فرط انجذاب إليه يصل إلى حد الاقتداء ، بل يصل إلى حد التعويض عن « رجولة » أبيها المهدرة برجولة من جانبها قوية عاتية عارمة المظهر ، ولا يكون ذلك عن كراهية له مضمرة فى نفسها ، بل عن محبة شديدة تجعلها تضحى بوجودها الخاص كى تقيم وجوداً بدل وجوده المنهار .

وليس معنى هذا أنها وعت ذلك أو خطر برأسها شىء

منه ، وإنما هو ما نسميه اليوم بالوجدانيات المضمرة أو تدبيرات العقل الباطن .

فنى هذه السن كانت الثورة الفرنسية الكبرى قد اندلعت ألسنتها فى كل فرنسا . وكان المقصود منها أول الأمر ليس ما انتهت إليه فعلا من تقويض الملكية والاندفاع فى الإرهاب وتقويض كل نظام قائم فى المجتمع الفرنسى ، فتلك غلطة شائعة لعل المسئول عنها تلك المعلومات المشوهة التى ينشرها أنصاف الأميين فى الصحف على الطراز الحديث ، فيتلقفها العوام ممن كل مصادر علمهم هذه الصحف بالتصديق والتسليم ، ولا سيما إذا صادفت هوى فى نفوسهم ، كالميل إلى التخريب والانقلاب . — أقول ، بعد هذا الاستطراد الذى لا لزوم له لا لأنه خطأ بل لأنه لن يغير من الحاصل شيئاً — إن الثورة فى مبدئها كانت حركة إصلاح دستورية مع بقاء النظام الاجتماعى والحكم الملكى . ولكن الغوغاء دأبها دائماً إذا استولت على الزمام أن تترك الميول المكبوتة — وهى غالباً عنيفة — تحتل مكان القلب والعقل جميعاً ، فتنتهى الحركات الحركات الشعبية لهذا السبب إلى عكس ما قامت من أجل تحقيقة ، أعنى أنها تنتهى بالفوضى والتخريب لا بالإصلاح والتقويم . وإذا كانت الثورة قد اندفعت فى الطريق التى

رسمها غوغاء باريس فعزلت الملك ثم قتلته ، فما كان ذلك ليرضي الكثيرين من أهل الريف المخلصين للملكية ؛ مما أدى إلى قيام حركات معادية لحكومة باريس . ولكن الحكومة المركزية فى موقف يسمح لها فى الغالب بالقضاء على هذه الحركات لوجود المال ومراكز الإدارة تحت يدها منتظمة قائمة ، فى حين تعوز المتمردين عليها مزايا التنظيم والأداة الإدارية المستقرة ، والمال على وجه الخصوص .

ومقاطعة « آفنيون » مقاطعة متمسكة بالدين، وبالتقاليد، فكان طبيعياً أن تثور لإعدام الملك والملكة ، وأن تجرد جيشاً من أهلها المتطوعين للانتقاض على حكومة فى الثورة . وكان عم « تيريز » جندياً فى أيام شبابه ، فاختير لقيادة جماعة من الجيش الجديد المرتجل . وحار ماذا يصنع بابنة أخيه ، ولكن حماستها للجندية أخرجته من حيرته، لأنه كان يتوقع أن تنتصر الحكومة الثورية، وأقلقه الخوف على عرضها أن يصيبه ما يصيب أعراض الفتيات المسالمات فى أمثال هذه الفتنة الجامحة ، ولا سيما من جنود ثوار يسيء بهم أهل الدين والتقاليد المظنة ولا يتصورونهم إلا شياطين خلت نفوسهم من كل وازع . فكان هذا دافعه أن يسمح لتيريز بارتداء ملابس جنود الجيش الجديد والانضمام إلى فرقته الصغيرة

المكونة من أخلاط من أرباب المهن يعوزهم التدريب والنظام وألفة القتال .

فلا غرابة إذن أن ينتصر الجمهوريون عليهم انتصاراً سهلا ؛ فما هجموا على أصحاب « تيريز » حتى دب فيهم الذعر ، وصاح صائح القوم « قد هلك سعد ، فانج سعيد » ؛ فإذا هى وحدها مع عمها القائد ، وقد أخذتهم سيوف القوم ونيرانهم من كل صوب ، فما أجدت محاولات الرجل فى تشديد عزيمة رجاله ، فكان إذا جذب الواحد منهم من ساعده ليبقيه أفلت منه بعنف ، أو ترك له سترته التى يتشبث بكمها ونجا بجلده ! وندع تيريز تصف ما حدث فى ذلك الموقف العصيب :

« وأقبل العدو سراعاً ، وما بقى غيرى وعمى فى الميدان ، وكأنما شل تفكيرنا فهو عاجز عن تدبير مخرج لنا مما وقعنا فيه . وفى هذه اللحظة برق بخاطرى شىء ، لست أسميه فكره ، وإنما هو بالإلهام أشبه . فقد كانت قادوحة المدفع تحت قدمى ، فانحنيت وقلبى يدق دقاً عنيفاً ويدى تهتز كورقة فى مهب الريح فتناولت القادوحة وجذبت الحبل ، فانطلق المدفع ، وأبصرت خلال التراب الثائر اضطراباً فى صفوف الأعداء عقب دوى الانفجار . وقد تم الأمر كله فى أقل

من لحظة واحدة ، كأنه ومضة حلم ، حتى إذا انتبهت وجدت نفسي ملقاة على الأرض إلى جانب عمى ، فنهضنا مسرعين وانتهزنا فرصة ارتباك العدو فأسرعنا هاربين ، واعتصمنا بزراعة كرم مما يكثر فى تلك الجهة »

ولكن العدو لم يلبث أن اكتشف مقرهما ، وحاصره برباط من الفرسان ، ولم يخطر لأحد منهم أن تحت هذا الزى العسكرى فتاة لافتى ؛ بل إنهم كانوا ينظرون فى شفقة ودهشة إلى هذا « الغلام » الذى كان باسطاً ذراعيه ليمنع عمه من امتشاق سيفه ، لأن المقاومة لم يكن لها معنى إلا أنها انتحار ؛ حتى أن واحداً منهم قال لتيريز وهو يصوب بندقيته إلى صدر عمها :

— ابتعد أيها الشاب الصغير حتى نصفى حسابنا مع هذا الوغد .

وأقبل جنود آخرون فى هذه اللحظة ، وصاح واحد منهم .

— إن الفتى هو الذى أطلق المدفع . لقد رأيته بعينى رأسى . اقتلوهما جميعاً .

ولولا أن هبط عليهم فى تلك الآونة ضابط أنقذ حياة الأسيرين واقتادهما إلى المعسكر لكانت هذه نهاية تيريز وعمها على السواء . وفى الطريق إلى المعسكر عرفت تيريز

أن قذيفتها قتلت ثمانية رجال أو تركتهم لا يصلحون بعدها لحرب أو سلم !

وظلت حقيقة جنسها مجهولة ؛ فقذف بها فى معسكر للأسرى من تلك المعسكرات التى ارتجلت إرتجالا ، وقد فرق بينها وبين عمها ؛ فذاقت فى تلك الحياة ألواناً من الهوان والنكال ، وأصابها من تكاشف الناس فى ضروراتهم ومباذلهم تقزز فزعت منه ، فاحتالت على حارسها — وكان طيب القلب — فرشته بساعة كانت تخفيها بين طيات ثوبها لكى يبلغ القائد أنها فتاة ، وأنها لهذا مضطرة إلى لزوم عمها . وأبلغ الحارس الرسالة ؛ وفى الغداة دعيت وعمها لمقابلة القائد وزوجته ؛ وقد تملكهما العجب لجرأتها مع أنها فتاة ، ورق لها الرجل فعرض عليها أن يطلق سراحها ويعفو عنها إذا انضمت لجيوش الجمهورية تحت إمرته .

وكادت الفتاة المتهورة أن ترفض نهائياً ، بل إنها رفضت فعلا فى مبدأ الأمر :

— هذا مستحيل يا جنرال !

— لماذا ؟

— لأن الجمهوريين قطيع من القتلة ، ولأن « مؤتمرك » الوطنى قد أعدم « ملكى » !

وعبثاً حاولت إمرأة الجنرال أن تخرج هذه الأفكار من رأسها ، رغم ما يحيق بها من خطر ، وما ذاقته من عنت : لولا أن تدخل الجنرال بلهجة حاسمة صارمة قائلا لامرأته :

— دعيها وشأنها !

ثم التفت إلى الفتاة وقال بنفس اللهجة :

— اذهبى إلى سجنك كما كنت ، أو ادخلى فى عدادنا فأعطيك خير جواد فى الفرقة . . . وهذه نهاية المسألة . . . »

ودار الموضوع فى رأسها ، فهى ليست من أهل السياسة ، وليست الملكية والجمهورية عندها إلا معارف على السماع ، ثم هى ولا شك تفضل شرف الجندية والحرية وصهوة حصان قوى على هذا السجن الكريه الذى كانت فيه ، أو ربما موسى الثورة المعروفة بالجيوتين ؛ فقالت للجنرال :

— لى شرط واحد . . .

— ما هو ؟

— إطلاق سراح عمى .

— ما أسعد طالعه أن تكونى بنت أخيه . . . قبلت !

— وأحب أيضاً ، قبل أن أحزم رأيى نهائياً ، أن ألقى نظرة على هذا الحصان الذى تعدنى به !

فانفجر الجنرال ضاحكاً من جرأتها فى وقت الشدة ،

حتى ما يفارقها المرح وحضور الذهن . . . وذهب معها إلى الإصطبل فانتقت الجواد الذى راقها ، ثم أعلن على الجنود أن الفتاة وعمها انضما إلى الجيش .

وسأل الجنرال جنوده :

ــ ماذا ندعوها ؟ . . .

فصاح أحد الجنود الذين أسروها :

ــ نسميها « تيريز الجسور » ، فإنها جعلت تسبنا وتصمنا بالجبن لأننا كنا نأتمر بقتل عدوين أعزلين بعد إذ كفا عن كل مقاومة .

ليكن « الجسور » اسمها منذ اليوم .

وكان هذا فى يوليه سنة ١٧٩٣ .

* * *

ومن هذا التاريخ لم تخل حياة « الجسور » من طرائف يسببها الانخداع فى جنسها . ففى حصار طولون ظنها قائد المدفعية غلاماً ممن يعملون فى خدمة الجيش فأمرها بتبليغ أوامر له كتابية إلى جهة نائية ، وكانت مجهدة على أثر عمل شاق ، فعرجت عند عودتها على جماعة من الجنود منهم الجاويش « مسينا » كانوا يطهون عصيدة حلوة ذات رائحة زكية ، فأكلت منها واستراحت قليلا ثم عادت إلى قائد

المدفعية بإيصال استسلام الأوامر ، فنظر فى ساعته وقال بجفاء :

— كان ينبغى أن تكون هنا منذ عشرين دقيقة . اذهب إلى الحجز .

وذهبت الجسور إلى الحبس وهى تكاد تنشق غيظاً . فهى مدللة من الجميع ، من القائد إلى أصغر جندى ، ولكن هذا الضابط الجديد لا يعرفها .

وافتقدها الجنرال عند الغذاء ، وكان لا يتغدى إلا بحضورها ، وأسرع ولده يدعوها من الحجز ، فدخلت على الضباط وهم على مائدة قائدهم حانقة ، وسألها القائد ماذا فعلت ؛ فصاحت بغير تحرج :

— هو هذا العتل ! انظروا إليه جميعاً ، أما ترونه يحمل أقبح وجه فى الوجوه . . .

وضحك الجميع ، وفيهم الضابط المقصود الذى كان قد عرف حقيقتها ، ولم يكن هذا الضابط المشئوم إلا نابليون بونابرت ، برتبة البكباشى .

ولكنها لم تلبث أن أسدت إلى هذا الضابط نفسه يدا بيضاء يقدرها قدرها ، إذ أن بطارية من بطارياته نفدت ذخيرتها أثناء هجوم الإنجليز فتطوعت وخاطرت بنفسها تحت نيران

الأعداء حاملة مددا من قذائف البنادق ، كان لها الفضل فى رد الهجوم عن ذلك الموقع . . .

* * *

وعندما انتقلت فرقتها إلى كاستر ، وهى قرية معروفة بملاحة فتياتها ، لم تحجم عن مغازلة البنات كدأب الجنود ، وكانت لها سوق نافقة ، ثم اصطفت فتاة علقتها ، ولكنها – بطبيعة الحال – كانت تكتفى بالصحبة والرقص والقبلات الخاطفة أحياناً ، ولا زيادة . وفى ذات ليلة كانت على موعد مع صاحبتها وكلفت بأمر هام ، فأرسلت من يمضى سهرة الرقص مع الفتاة عوضاً عنها . ويظهر أن ذلك البديل كان غير متأثم فى سلوكه معها ، فإذا أبو الفتاة يحضر بعد شهور إلى المعسكر ويجبه الجسور بقارص الكلم ، ويطلب إليها (أو إليه) أن يتزوج ابنته التى عبث بشرفها ، فسبته الجسور ولم تفصح له عن خطئه ، فذهب مع ابنته وزوجته إلى بيت الحاكم . ودعيت الجسور .فذهبت ، وإذا القائد وزوجته على أتم ما يكون من الجد الجاد ، كأنهما قاضيان على وشك الحكم بالإعدام .

وقال القائد للأب :

تعال معى ، ولتبق ابنتك وزوجتك مع زوجتى هنا ،

فلا شك أن لدى الجاويش الجسور ما يقدمه برهاناً للسيدات على نقاء صفحته مما ينسب إليه . . .

وخرج الرجلان ، وأقامت الجسور البرهان ، فأغمى على أم الفتاة من وقع المفاجأة العجيبة ، كأنها ترى أمامها خارقة من فعل الجن؛ حينئذ أطلقت زوجة القائد العنان لما طال بها كتمانه من الضحك . . .

* * *

وعلقها بعد ذلك ضابطها ، وطلب يدها وألح ، فاشترطت أن يسمح لها بارتداء الزى العسكرى بلا تغيير ، فوافق .

وتذكر هى ليلة الزفاف وكيف جعلت تراوح بين الإقدام والإحجام ، ذاكرة ستر رفيق صباها الذى كانت تحبه وتلعب معه وهى فى العاشرة ، وعهد الحرية الذى تمتعت به وكيف يهدده سلطان الزوج الذى لا يضمن استمراره على إرخاء العنان وإطلاق الحرية . ولكن بريق المكانة الاجتماعية التى تحتلها زوجة « قائمقام » حسمت الأمر

وحانت ساعة العقد ، وهو على عهد الثورة وما تلاها لا يعقد فى بيعة، وإنما أمام مسجل العقود أو « موثقها » الرسمى ورأى الرجل أمامه حاشية شرف من الضباط، ورأى العروسين متماثلين تماماً فى السمت والشارة ، من الخوذة ، إلى الحلة ،

إلى السيف الموشى ، إلى الحذاء الصارم . وحك الرجل أرنبة أنفه وصاح فى حيرة :

ـ أريد أولا أن أعرف أى هذين السيدين هى العروس ؟

وانطلق الحضور يضحكون . . . حتى العريس الذى كتم الضحك أول الأمر لم يلبث أن اندفع يضحك معهم ويربى عليهم فى علو الصوت . . .

وأحنق هذا تيريز ، فسبت العريس وأعلنت أنها لن تكون له زوجاً بعد اليوم ، وانصرفت محنقة .

* * *

وفى فيينا أعجب بها الماريشال برنادوت ، الذى أصبح ملك السويد فيما بعد إذ انسلخ عن ولى نعمته نابليون ، ومن نسله الكونت برنادوت المعروف للعرب والذى قتله اليهود فى فلسطين غيلة . وطلب الماريشال إلى قائد فرقتها أن يسمح بنقلها إلى هيئة حاشيته .

ولم تلبث أن دعيت ذات صباح إلى حضرة الماريشال .

ـ أتدرين يا عزيزتى الجسور أننى لم يغمض لى جفن هذه الليلة ؟

ـ إنك مرهق يا ماريشال . فهذه الحملة قد وقع عبؤها عليك .

ـ ليس هذا هو السبب ، فقد تعودت العمل الشاق . أنت هو السبب فى هذا الأرق ! . . .

ـ سيدى الماريشال يمزح ولا شك !

ـ البتة ! فقد انجذبت إليك منذ وقع بصرى عليك ، وأحسبك قد لاحظت ذلك دون أن أبوح به .

فرفعت رأسها إلى فوق وجمدت نظرتها ولم تجب .

ـ اسمعى ! حين أكون فى الميدان لا بد لى من عشرة امرأة . وزوجتى لا تساعدها صحتها على صحبتى فهى دائماً فى باريس . فليس الأمر نزوة عارضة ، وإنما ما أعرضه عليك هو الصحبة المستقرة وسأحسن جزاءك !

وجذبها إليه ليقبلها ، فتخلصت منه بلا عنف ولا غضب ، ولكن بأسف ومرارة ؛ « فهذا الرجل الوسيم ، العالى القدر ، القوى ، المذهب الصدر والأكمام ، المرصع زيه بأسنى الأوسمة ، ينزل بنفسه إلى هذا الحد ، فينظر إلى أنا هذه النظرة الرخيصة ، وأنا صنوه فى الشرف العسكرى ، فقد قاتلت كما قاتل فى الميدان وسيفى مصلت فى يدى ، أنوش الأعداء وينوشوننى ! لقد نضح فى تلك اللحظة جبينى بعرق الخزى ، الخزى له ، لأن عاره يصيبنى أنا أيضاً لما بيننا من شرف عسكرى مشترك ؛ ثم غمغمت كلمات غير

مفهومة فى ذاتها ولكن دلالتها واضحة ، مثل « رجل متزوج له أولاد . . . لم ترغب فى تقريبى إذن لأننى جندى شجاع ، بل لأن . . . ووقف الكلام فى حلقى . . . فأسرع الرجل يعتذر ولج فى الاعتذار . . . »

حدث هذا سنة ١٨٠٦ ، ومن هذا اليوم رحلت تيريز من فينا وعادت إلى فرنسا كاسفة البال .

* * *

وعندما بدأت حرب العصابات فى إسبانيا ، اشتركت فى الحملة ، وتعرضت لمحن كثيرة ، وأنقذت جندياً من الموت ولكنها وقعت فى الأسر آخر الأمر ، ونقلت مع من نقل إلى بريطانيا على يد ولنجتون .

وكانت السفن التى نقلوا عليها عتيقة بالية ، وكان النوء شديداً فخاف الأسرى وجعلوا يبتهلون ويتصايحون وتيريز جامدة ، صامتة ، وإذا رجل إلى جوارها يصيح وقد ذهب الخطر برشده :

ـ أين حذائى يا تيريز . . . هاته لى ، فما أستطيع أن أقف بدونه . . .

فقالت له بهدوء قاتل :

ـ أولى لك أن تبحث عن طاقية نومك ، لأنك وشيك

أن تنام النومة الأبدية !

* * *

وفى إنجلترا أحسن معاملتها كما أحسنت معاملة جميع الأسرى ، واشتغلت بفلاحة حديقة بيتها الذى تسكنه ، وإن أجبرت على خلع زى الرجال . ولكنها ظلت على حالها من الجسارة والخشونة والمبادرة إلى المدية للتفاهم عند أول بادرة خلاف . . .

وقد نال المهاجرات النبيلات من لسانها الشىء الكثير إذا جرحوا أمامها الشعب الفرنسى . حتى إذا هزم نابليون أول مرة أعيدت إلى فرنسا ، لكى تجد نابليون فى أعقابها عائدا من إلبا ، فانخرطت فى سلك الجيش من جديد .

ولكن نابليون لم يلبث أن انتهى فى واترلو ، فانتهت معه أطماعها العسكرية ، وخلعت الزى العسكرى وافتتحت مطعماً متواضعاً للجنود قبالة الثكنات ، لتعيش أقرب ما يكون إلى جوها الذى ألفته . . .

وفى هذه الحال لقيت رفيق صباها « كليمان ستر » وكان قد صار من رجال الحرس الملكى ، فخطبها له قائد باريس العسكرى تكريماً لماضيها فى الميدان ، فقبلت . . .

قبلت لأنه « آدمها » الذى لا ترفضه ، ولا تجنح للاسترجال

إلا لأنها لم تلقه بعد .

وندعها تصفه بنفسها إذ تقول :

« ما وقعت عقد الزواج حتى طرحت من رأسى كل خاطر يتعلق بالاستقلال والتحرر، وأصبح كل تفكيرى منحصراً فى إسعاد زوجى ، ولم يبق من روحى العسكرية القديمة إلا الإيمان بأن الطاعة العمياء واجبة على للقائد الذى ارتضيته . ولم تكن أوامره قاسية ، فقد كان زوجى ألطف الرجال وأحبهم إلى . فهو شجاع مخلص رزين رقيق الحاشية . وكان فوق هذا كله نموذجاً جميلا للرجولة الحقة ، فهو أوسم رجال فرقته جميعاً . طوله أكثر من خمسة أقدام ، له صدر عريض يزينه وسام الشرف . أما سمانة ساقه فمن الضخامة بحيث لا تفيض عنها منطقتى التى أحيط بها خصرى . »

* * *

أرأيت كيف تنتهى العرامة والجسارة ؟ . . .

تنتهى عند آدم ، وإن بدت لأول وهلة كأنها آية الغنى عنه والزهد فيه ومنافسته فى ظاهر أمره وخافيه . . . لأنها فى واقع الأمر مما حككة الراغب لا مناوشة الصادف . . .

إنه التعوض عن آدم قبل حضوره ، وقد يطول غيابه وقد يقصر ، ولكنه لا يرد إذا حضر .

٢ ـ مع آدم

من الصحراء

من الغرب

من الريف

من الصين

١ — من الصحراء

من المعروف عن العرب حمايتهم الحريم ، يجعلون ذلك عندهم أغلى ما يحرص عليه . ولهذا كانوا يصحبون نساءهم معهم إذا خرجوا لغزوة ، حتى يوقن الرجل منهم أن معنى الهزيمة الذى لا معنى سواه سبي حريمه من نسائه وبناته ، وتلك غاية القهر وسبة الدهر .

وكان النساء يشاركن فى المواقع مشاركة تتفق وجنسهن ، فيحملن الماء إلى الظماء ، ويعن الجريح ؛ ويحرسن مؤخرة الجيش ، ويعيرن من يفكر فى الفرار حتى يخجل ويثبت فى الميدان .

ومن أغانيهن فى هذا المقام تلك الأرجوزة المشهورة :

فأن تقبلــوا نعانق ونفرش النمــارق
أو تدبروا نفــارق فــراق غير وامق

* * *

إلا أن الحماسة فى هذا المجال ليست حماسة فردية ، وإنما هى روح الجماعة ، جماعة النساء بالعدوى أو بالتبعية لجماعة الرجال . فالنساء فى هذا يتبعن عرفاً ، ولا تتميز واحدة منهن

بالمبادأة فى العمل ، وإن كانت للجرأة مكنتها فى هذه المواقف ؛ ولكنها جرأة المجاوبة لشعور الجماعة مجاوبة أحر من سواها ولا زيادة .

فمن ذلك ما حدث على ما يقال — فى غزوة « أحد » إذ خرجت « عمرة بنت علقمة الحارثية » مع زوجها وكان من بنى عبد الدار ، فأصيب لواء القوم ولم يدن منهم أحد لرفعه ، فانبرت عمرة إلى اللواء فرفعته لقريش فالتفوا حولها ولاذوا بها ؛ وفى ذلك قال حسان بن ثابت :

ولولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون فى الأسواق بالثمن البخس

* * *

ولكن أبرز مثل فى تاريخ العرب للمرأة المحاربة ، المقاتلة فعلا كما يقاتل الرجال بسلاحهم وعرامتهم وتجديهم للأقران والأبطال ، فهى ولا شك « غزالة » الخارجية » زوج شبيب ابن يزيد ، أمير الخوارج المشهور بمواقعه مع جيوش الحجاج ابن يوسف على عهد عبد الملك بن مروان . حتى قيل إنه قتل للحجاج خمسة قواد وهزم له عشرين جيشاً ، وهو على رأس فئة قليلة قيل إنها لا تتجاوز فى أغلب الأحيان تسعين رجلا .

وقد اشتهرت زوجه غزالة باشتراكها معه فى الحروب ،

وفى التبصير بمعتقدهم فى الدين ، فهى تخطب على المنابر ، وتخوض المعارك ، وتتحدى الكماة للمبارزة كما يتبارز الأقران ، حتى قيل إنها دعت الحجاج فى بعض المواقع أن يبرز إليها بعد أن جندلت من فرسانه العدد العديد، فأبى وخاف ، فعيره عمران بن قطحان بتلك الأبياتَ اللاذعة التى تقطر تهكماً وزراية :

أسد على ، وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى؟ بل كان قلبك فى جناحى طائر !

* * *

والظاهر أن غرابة هذه الفعال من امرأة حجبت شيئاً ما فعالا لا تقل عنها غرابة أتاها زوجها شبيب ، فما خرجت غزالة إلا بخروجه ، وما حاربت إلا شدا لأزره ، وقصارى الأمر أن «شناً قد وافق طبقة» . فنظرة إلى صورة ذلك الرجل تطلعنا على عملاق جبار يعز ضريبه بين أهل الفتوة والعرامة . فهو قوى فى كل شيء ، حتى قيل إنه كان لا يحارب بسيف ، بل بقضيب من الحديد قيل إنه كان يزن ثمانين رطلا ، وأنه كان يعد به القتلى بعد انتهاء المعارك التى يكسبها ! أما صوته فكان شيئاً مهولا : إذا صاح فى جنبات الجيش لم يلو فيه أحد على أحد ! حتى قال فيه الشاعر

إن صاح يوماً حسست الصخر منحدراً
والريح عاصفة والموج يلتطم

فهو رجل من جبابرة الخلق وعتاتهم ، له امرأة على غراره فيل إنها كانت فقيهة أيضاً وخطيبة ، فهى معتزة بجبروتها مزهوة بجبروت رجلها ، حتى إنها قالت له يوماً :

— يا شبيب ! لقد نذرت لله نذراً سألتك أن تعيننى على الوفاء به ؟

— وما ذاك يا غزالة يرحمك الله ؟

— أن أصلى فى مسجد الكوفة الجامع ركعتين ، أقرأ فى الأولى سورة البقرة ، وفى الثانية سورة آل عمران . . .

وما أدراك ما الكوفة يومذاك ! إنها حاضرة الجبار العنيد ابن يوسف الثقفى الذى قتل له شبيب القواد، وأفنى له آلاف الأجناد، وجعله مضغة فى أفواه العباد . وإن للحجاج فى الكوفة لستين ألفاً جمعهم لحرب شبيب وغزالة !

ولكنه الجبروت والعزة بالفتوة !

وناهيك بالبقرة وآل عمران : أنهما أطول سور القرآن قاطبة . فآيات البقرة مائتان وست وثمانون آية ؛ وآيات آل عمران مائتان . . . وناهيك بصلاة تتلى فيها هاتان السورتان وسط عدو عدته ستين ألفاً . . . إنها ليست صلاة الواجف

العجلان ، بل هي فعلة المستأنى أناة الاستهانة بعدوه الجرار .

ولكنه الجبروت والعزة بالفتوة !

وآلى شبيب على نفسه أن ينيل غزالة وفاء نذرها ، فقصد الكوفة برجاله فمر بعتاب بن ورقاء على رأس جيش للحجاج فقتل عتاب وفرق جيشه ، وانقض على عبد الرحمن بن محمد وجيشه فهرب عبد الرحمن بجلده وتشتت جيشه ثم دخل الكوفة وفيها الحجاج فى ستين ألفاً فدخلها عند أوان الصبح واخترق شوارعها لا يعترضه أحد ، ووقف بثمانية من أصحابه عند باب المسجد ، حتى صلت غزالة كما نذرت وأطالت كما شاءت ثم خرج كما دخل لا يتعرض له أحد ؛ وقيل إنه أصعدها المنبر فى بعض « كبساته » للكوفة فخطبت الناس! ويقول صاحب الفرق بين الفرق إنها كانت فى تلك « الكبسة » على رأس كتيبة من النساء يعتقلن الرماح ، وإن كان يذكر غزالة بوصفها أم شبيب لا زوجه ، وذلك عندى مستبعد ، لأنها لو كانت أمه لظهرت فتوتها قبل ولدها ، وإذا هى ادخرتها لحين ظهوره فما تكون إلا عجوزاً وهى عصبها ، فقد كان شبيب يومئذ فى الأربعين .

وفى غزالة يقول خزيمة بن فاتك الأسدى ذاكراً كبساتها لمدن العراق مع زوجها :

أقامت غزالة سوق الضرار لأهل العراقين حولا قميطا
سمت للعراقين فى جيشها فلاقى العراقان منها أطيطا

والأطيط — يرحم الله القراء — هو الصوت يخرج عند اشتداد الكرب ، أو هو حنين الابل إلى معاطنها ، والمعنى أن أهل العراق لقوا منها الويل والحرب . . .

ذكروا ويل العراق من غزالة ، وما خرجت غزالة وحدها ، ولكنها غرابة فعالها من امرأة ؛ فلم يذكر زوجها إذ ذكرت ، وما كانت — فى ظنى لتقوم بالعبء لولاه — فهو اعتزازها برجلها القوى الجبار يستنفر اعتزازها بقوتها الخاصة ، حتى إذا غرق شبيب فى دجيل إذ نفر به جواده ، لم يطل بعده قيامها ، بل هزمت وقتلت عند أول لقاء . . .

ذهب العود ، فاختفى الظل
وكان ظلا هائلا لعود هائل . . .
لقد كانت غزالة شيئاً مروعاً . . .

ولكنها فى الواقع كانت أهول ما تكون من حيث هى أنثى شبيب بن يزيد التى تلتئم معه فى الصفات ، فتنفر معه إذا نفر ، وتموت إذا مات .

كانت غزالة « فارساً » مغواراً . . .

ولكنها كانت حواء من ضلع آدم ، ولم تكن خليقة مستقلة

على ضخامتها وعتوها الفريد . . .

٢ — من الغرب

وقد زخرت صحائف الغرب بنظائر لتلك الفتوة الأنثوية التى تختلط بحياة الرجل المحارب مخالطة مآزرة أو استمرار وأكثر تلك الأمثلة قد ظهر فى عهد نابليون الأول ، لأن حكمه كان مسرحاً متسعاً للجندية ، ولأنه سلك فى عداد جنوده معظم شباب فرنسا ، فأتيحت الفرصة للاناث المتجاوبات مع فحولة رجالهن وفتوتهم أن يظهرن فى تلك الحقبة بالذات أوضح ظهور ؛ إما محاربات مع الزوج لكى لا يفترقن عنه ، أو خالفات الزوج فى الطريق الذى عاش له ومات فى سبيله ، كأنما هن استمرار للرجل بعد موته . . .

وأولى تلك المثل مثال المرأة التى تلزم زوجها وتشاركه الشدة والبأس : « ديكو بونسيه » .

ويروى الرواة أنها عرفت نابليون ، وكان ذلك عام ١٨٠٦ أثناء عرض للخيالة فى ساحة مارس ؛ إذ لمح نابليون فارساً يتبع الصفوف ولا يندمج فيها على خلاف المعهود فى طوابير الجيوش ، وكان — كأى قائد عليم بصناعة الحرب — يتشدد فى أمر النظام والتدريب ، فاشتاط غضبه وصاح بقائد

الفرقة فى لهجته الخاطفة الصارمة :

ـ ما هذا الذى أرى؟ لماذا لا يلزم هذا الفارس مكانه فى الصف؟ كيف يتأتى أن يختل النظام إلى هذا الحد فى فرقة راق لى أن استعرضها بنفسى؟ احبسوه أسبوعاً فى الثكنة

فأجابه القائد مراجعاً :

ـ مولاى ؛ اسمح لى أن التمس من جلالتكم تخفيف شدة هذا الحكم وأن ألتمس للمذنب الصفح . فإن جلالتكم لن تتمسكوا بتنفيذ هذا العقاب إذا عرفتم قصته . . .

ـ حسن ؛ احضره إلى هنا .

وحضر الفارس مركضاً جواده ، ودار بينه وبين الإمبراطور الحوار التالى :

ـ اسمك؟

ـ ديكو بونسيه يا مولاى .

ـ لماذا تركت الصف؟

ـ لم أكن فيه حتى أتركه ؛ فقد كنت دائماً أتبع هذه الفرقة على وجه التطوع ، لأننى لم أشأ أن اندمج فيها حتى يقرر مولاى أننى أهل لذلك .

ـ كم مضى عليك منذ تطوعت؟

ـ ثمانى سنوات .

ــ وما دفعك إلى التطوع ؟

ــ حبى وطنى وزوجى الذى لم أحبب فراقه ؛

ــ ماذا ؟ أأنت امرأة ؟

ــ أجل يا مولاى ؛ ولست واحداً فى الفرقة كلها ساعداً هو أصدق مضاء فى خدمتك من ساعدى ؛

ــ وما اسم زوجك ؟

ــ « بونسيه » . ضابط الإمدادات والخدمة .

ــ ما مسقط رأسك ؟

ــ أنجوليم .

ــ ما عمرك ؟

ــ ثلاثة وثلاثون عاماً

ــ ألك أولاد ؟

ــ أجل يا مولاى ؛ ولد واحد

ــ ماذا يعمل ؟

ــ إنه حامل الطبلة فى الفرقة الثانية .

ــ حسن ؟ أتعرفين التمرينات العسكرية ؟

ــ أجل يا مولاى ؛ وتمرينات السيف أيضاً .

ــ أود أن أرى هذا بنفسى ؛ أدعوا ثلة من الجنود ولتأخذ بينهم مكانها ولتبدأ التمرينات . . .

وشهد الإمبراطور التمرينات بنظره الثاقب حقيقة ومجازا ، وبعد برهة صاح فجأة — على عادته :

— كفى ؛ لا بأس ؛ « ديكو بونسيه » أعينتك فى الجيش بنفس رتبة زوجك ؛ انصراف :

وفى موقعة « إيلو » على الخصوص أظهرت شجاعة باهرة فقد كانت تندفع بين صفوف الأعداء وسيفها مشهر فى يدها ، فقتلت قائد الكتيبة المعادية وعادت إلى مركز القيادة بوشاح الضابط الذى قتلته ؛

وفى موقعة فريدلاند أصيبت بضربة سيف غائرة فى فخذها الأيمن ولكنها لم تأبه لإصابتها واستأنفت القتال حتى أصابتها قذيفة تحت إبطها الأيمن ، ولكنها ثبتت على صهوة جوادها ، ونقلت السيف إلى يدها اليسرى واندفعت تحارب مرة أخرى . . .

وفى هذا اليوم أسرت ستة من البروسيين استاقتهم إلى نابليون ، فنزع — فيما يقال — وسام الشرف (اللجيون دونير) من صدره وثبته على صدرها ، اعترافاً ببسالتها وحسن بلائها .

وفى موقعة واترلو ذهبت شظية قنبلة بأحدى ساقيها ، كما سقط زوجها إلى جوارها قتيلا ؛ وكان قد بلغ رتبة اليوزباشى ، وأخذت أسيرة ، ولكنها عوملت بكل احترام

من آسريها البريطان .

وفى سنة ١٨٢١ ، أى بعد ست سنوات ، عادت من الأسر إلى وطنها فرنسا ، بعد أن ظن الجميع أنها ماتت . ولكن الملكة العائدة إلى العرش لم تأبه لها ، فظلت مهملة الشأن حتى ماتت سنة ١٨٣٤ فى حالة من العوز شديدة ؛ ولكنها تحملتها بشجاعة وأنفة ، حتى أثر عنها أنها كانت تقول دائماً :

— إن يكن نجمى فى الحضيض ، فرأسى لا يزال فى السماء . . . ؛

امرأة شجاعة ، ولكنها حواء التى تلتصق بآدم وتقتدى به ، تستجيب له وتحيا فيه . . .

* * *

والمثل الآخر فى هذا المقام هو « أنجليك بريلون » أو « الصول أنجليك » كما كانت تدعى فى الخدمة وفى المعاش . ولدت فى سنة ١٧٧١ ، وكان أبوها جنديا طيلة ثمانية وثلاثين عاماً بغير انقطاع ، وسقط أخواها كلاهما فى ساحة القتال ، ومات زوجها عنها سنة ١٧٩١ بعد خدمة عسكرية دامت سبع سنين ؛ فانضمت على أثر وفاته ، وهى فى الحادية والعشرين من عمرها ، إلى الفرقة التى كان ينتسب إليها

زوجها إلى أن استشهد .

وإذا كان التاريخ لم يحفظ ذكر زوجها هذا الذى خلفته ، لأنه واحد من ملايين من أمثاله ، وإنما حفظ ذكرها لندرة مثالها فى الجندية ، فأكبر الظن أنها لم تضرب ذلك المثل إلا حفظاً لذكر الزوج الغمر بين الرجال ، حتى تكون حياتها استمرارا لحياته التى غوضرت فى معية الشباب .

وقد خدمت مثله سبع سنين ، كانت فيها نمطا طيباً للاقدام وحسن السلوك فى الميدان وفى حياتها الخاصة على السواء ، حتى ترقت من نفر إلى باشجاويش ، فقد أبدت شجاعة ملحوظة فى الدفاع عن حصن چسكو فى كورسيكا أمام الإنجليز ، وفى حصار كالڤى بإيطاليا ، حتى بلغت ببسالتها درجة البطولة .

فالوثائق الرسمية تشهد أنها فى حصن چسكو قادت الجنود فى التحام مباشر – يدا ليد – مع الأعداء ، ولم يفت من عضدها جرح فى ذراعها الأيمن من ضربة سيف ، وجرح آخر فى ذراعها الأيسر من خنجر ، بل رحلت تحت ستار الليل إلى كالڤى رغم هذه الجراح البالغة لتعود قبل الفجر بمدد من الذخائر تحمله ستون امرأة بقيادتها وبحراسة أربعا فتسنى للحامية بهذا المدد أن ترد الأعداء وتحتفظ بالموقع

الحصين بفضل قيادتها الحكيمة وإقدامها العزيز النظير .
وفى حصار كالڤى أصابت ساقها شظية أعجزتها عن مواصلة الخدمة ، فاستقرت فى ملجأ الأنڤاليد لمقعدى الحرب ، وظلت فيه حتى ماتت بعد أربعة وخمسين عاماً ظلت فيها موضع التقدير والتكريم من جميع رفقائها ؛ فنى سنة ١٨٢٢ رقيت إلى رتبة الصول ، وفى سنة ١٨٥١ منحت وسام الشرف ، الذى ظلت تحمله فوق بزتها العسكرية إلى أن قضت سنة ١٨٨٩ .

امرأة باسلة ما فى ذلك شك .

ولكنها امرأة ، تبعت آدم وتقمصت ثيابه وفعاله لتكون « امتداد » له بعد وفاته . . . ولولا أن آدم كان جنديا لما نضت حواؤه سيفاً ولا انبرت لقتال . . .

٣ — من ريف مصر

ومصرنا العزيزة لا تخلو من هذه النماذج الطريفة من النساء اللواتى يسترجلن مسايرة لبعولتهن واندماجاً فى أشخاصهم . وقد شهدت بنفسى فى بعض بلاد الوجه البحرى نمطاً من هذا الطراز : امرأة ضخمة أدماء طولها متران ، وملامحها ضخمة ، ناطقة بالطيبة وصوتها خفيض ، وطبعها هادئ ، فهى أطول خلق الله

بالا وأوسعهم صبراً ، ولهلالية — فهذا اسمها — زوج فى فى مثل ضخامتها البائنة ولكنه جهير الصوت سريع الغضب حاد اللسان . . . إلا مع هلالية ، فهى عنده أثيرة ، على كثرة زوجاته غيرها ، فهو يتطامن لها عن مودة وتقدير كذلك الذى يقوم بين الأكفاء . . . وهى كذلك تخفض له جناح الذل ، وتحرص على راحته ، وتنظم الأمور بين سائر الزوجات كأنهن بناتها ، بعد أن اعتزلت هى مخدع رجلها منذ حجت معه عقيب وفاة ولدها الوحيد .

وقد تساءل بعض من عرفوا هؤلاء القوم لماذا يمسكها ولا يسرحها . . . فتطوعت إحدى ضرائرها بالشرح قالت إن هلالية كانت أول أزواج صاحبنا ، وهاجرت معه إلى هذا الموطن من الشرقية ، فنزلا وحيدين بين أقوام هم عصبة قوية ، فأرادوا أن يبغضوا إليهما المقام فجعلوا يتصدون للزرع بالتحريق والقلع ، ونشبت معركة احتشدوا لها ، فانبرت « هلالية » مع زوجها ، فسندت ظهرها العريض إلى ظهره العريض ، وشهرت عوداً من قوائم الخيام كما شهر عوداً مثله وجعلا يدوران معاً ، وجهين لا ظهر لهما ، حتى فر القوم أمامهما وتحاشوا التعرض لهما بعد ذلك .

وأقامت هلالية تتناوب مع زوجها الحراسة خوف الغيلة ،

وهى التى ألحت عليه أن يتزوج عليها أكثر من واحدة لتكون له عصبة قوية من الصهر والولد . . . ففعل وهى بذلك قريرة ، وهو يحسبها جزءاً من شخصه لا امرأة تغار عليه وتحرص على الاستئثار به ، أو هى أخت أو أم تدبر أمره وتريد له العزة والمنعة ولا تنظر إلى غير ذلك .

وكانت لها مواقع بعد ذلك ، فقد شهدت يوماً عامل وزارة الزراعة يغلظ لرجلها فى الكلام ، ووراءه خفير النظام ببندقيته المعهوده ، فما شعر الرجل إلا وهلالية قد خرجت من الدار وأقسمت له « برأس أمها » أن تطين له وجهه الكريم ، ثم أطبقت عليه كما يطبق الباشق على العصفور ففعلت به كما قالت . . . ثم التفتت تريد الخفير ، فإذا هو فى العدوة الأخرى من المصرف وقد خاضه بحذائه الأميرى ، فهو هناك بائن الذعر كأنه لا يصدق بالنجاة ؛

وما عرف عنها فى غير ذلك أنها تحرشت بأحد ولو تجنى عليها بالمقال . فكل ما دون المساس برجلها هين وإن علا واستطال . . .

حواء عاتية . . .

ولكنها حواء ، استظلت بآدم واندمجت فيه اندماج القدوة والولاء الذى يبلغ مرتبة الفناء . . . وهى بغير آدم قوىّ ضعيفة

فى عداد الضعفاء . . .

٤ — من الصين

نحن الآن فى الصين المجاهدة ، إبان صراعها الدموى الرائع من التنين الأسود الذى نزل بأرضها تحت راية من الشمس المشرقة ، فإذا هذا الشعب الوادع ، شعب الأرض الطيبة والفطرة السليمة المسالمة ، ينقلب — ذياداً عن حياته — أخطبوطاً له ألف ذراع ، كل منها حية متينة الأصلاب لا ينقطع لها رأس حتى تنمو لها رأسان ، ولا يبتر لها ذنب حتى يكون لها فى الغداة ثلاثة أذناب .

ألوف من الشراذم وألوف من القواد الذين ما تلقنوا أصول الحرب إلا عن الغريزة الموروثة فى الخلايا والأعصاب منذ عهد الكهف والغاب .

حمل السلاح كل أمين ، كما حمله كل أفاق خارج على القانون ، فامتزج فى الغاية المشتركة أنها شبع التمرد وهدف الحمية على العرض والوطن وتراث الآباء . فأصبح قطاع الطريق فى هذا النضال أبطالا إذ توجهت دوافعهم الدموية تلك الوجهة المقدسة فى شرعة الحياة وشرعة الوطنية على السواء .

* * *

والوجه الذى ترتسم ملامحه فى هذه الصفحات التى تصور روح الصين الباسلة كما جلتها للعالم « بيرل باك » هو وجه امرأة على قسمات وجهها خشونة البداوة والفطرة الساذجة فى شدة وعنفوان ، فإذا جد الجد فهى أتون تضطرم نيرانه ، أو ظل يخيم على الأفق فى صمت فكل ما يستظل به مضطرب جازع لهذه الوحشة التى ترين على النفوس حين تقف بين جفنى الردى وهو يقظان . . . ثم هى إذا وجب الاختيار فى مفرق الطرق تعرف أيان ينبغى أن تسلك لا بما هى امرأة بين النساء ، بل كجندى يحمل السلاح ، وقائد ينطوى لسلطانه الرجال فى إيمان ملهم كأنهم نوم من أثر ما تبعث فيهم شخصيتها القوية الصارمة من حماسة وجسارة وذكاء خارق ، وشدة تأخذ بها نفسها كما تأخذ جنودها وجنود الأعداء على السواء .

وإنا لنراها فى مطلع هذه القصة وقد جلست القرفصاء من سجنها فى ركن مظلم ، تحدق فى الحائط القائم أمامها ، ولا تنظر جنبتيها . فقد كانت تعلم أن رجالها من خلفها فى هذه القاعة المعتمة الرحيبة التى لا ينفذ إليها ضوء النهار .

كيف انتهت إلى هذا السجن ؟

إنها لتسأل نفسها هذا السؤال ولا تجد عليه لديها جواباً...

وظلت صامته «تجتر» الأحداث السابقة على هذا الموقف النكد . وظل الرجال من خلفها صامتين ، لا تنبس ولا ينبسون .

أكان صمت ملامة تحبسها بقية من تجلة وإكبار ؟

لعله أن يكون .

ولكن هذا الخذلان يجب أن ينقلب إلى ظفر ولا بد لها أن تخرج هذا الظفر من هاوية الهزيمة بين أنياب التنين ، وإلا فقدت إيمان رجالها بها إلى الأبد .

لعلهم الآن يقولون :

– إنما نحن الآن هنا لأن من تقودنا امرأة ذات سوار . . .

وامتدت أناملها فى غير تفكير فتحسست يديها ، فإذا هما كيدى رجل جلف حلف بؤس وعمل : فلا نعومة ولا سوار ولا طراوة تنبى عن أنوثة أو ضعف .

لقد خلعت هذا كله يوم مات رجلها قائد هؤلاء الرجال ، فحملت من بعده الراية ، ودان لها الجنود بالطاعة ، لأنهم كانوا يعلمون أنها كانت الرأس المدبر لزعيمهم المقتول

ولقد تقدم إليها من بين رجالها الألفين شبان هم أمل كل خود وحلم كل كاعب ، ولكنها أبت على نفسها أن تكون إلا رجلا يخضع له الرجال ولا يخضع لمشيئة أحد فى « حال من الأحوال » .

ولقد ساقتهم إلى النصر تلو النصر ، بل إنها لم تعرف هذه الهزيمة اليوم إلا لأنها تبعث شرذمة من اليابانيين وقد ولو فراراً ، ولكن أكثر رجالها لم ينتبهوا لهذه المطاردة فلم يتبعها فيها إلا هؤلاء الخمسون فوقعت معهم فى كمين ، وها هم أولاء معها الساعة ، وقد ران عليهم صمت كصمت القبور .

وما بلغت من حساب نفسها هذا المبلغ حتى ثارت كبرياؤها فى أطواء قلبها فانتفضت انتفاضة الحيوان الجريح ووقفت فواجهت رجالها الذين بدوا لها فى ظلمة السجن أشباحاً ، فقالت تخاطبهم فى تؤدة :

ــ أيها الرجال ! حذار أن تنسوا أننى طالما قدتكم إلى النصر فأحسنت القيادة . وقد أظلكم علمى خمس سنين لم تحرموا فيها من طعام أو مأوى ، ولم يهرأ البرد أجسامكم لأننى كنت ساهرة على الدوام لأوفر لكم كل ما تحتاجون إليه . فلا موضع للشكوى أو الندم .

وسكت الرجال لحظة ثم « تنحنح » واحد منهم وقال لها فى صوت أجش :

ــ وهل شكونا أيتها الزهرة الذهبية ؟

فاستطردت « الزهرة الذهبية » تقول :

ــ وبالأمس فقط أيها الرجال استعدنا البلد الذى فقدناه

منذ شهر وقتلنا ذلكم الخائن الذى أقامه اليابانيون حاكماً عليه، وذبحنا معه زوجته . ... فلتعلموا إذن أننى لن يقر لى قرار حتى أنتزع عاصمة الإقليم نفسها من مخالب التنين ، وإنى لأقسم بكل مقدس فى معتقدات آبائى وآبائكم أننى سأعيد عاصمة الشعب إلى الشعب ، وأننى سأعيدها سالمة من الدمار والخراب الذى تحدثه الحرب . . .

وهالها قسمها ، وهى التى طالما أقسمت فبرت بأقسامها . ولكن هذه اليمين بدت لها شيئاً رهيباً حقاً ، وحدقت فى رجالها فلم تتبين لشدة العتمة أكانوا ينظرون إليها مكذبين أو مصدقين ، ولكنها تابعت حديثها فى قوة وثبات :

— ولا تنسوا أيها الرجال أننا هنا خمسون فقط بين هذه الجدران ، وأن ألفين من الرجال إلا قليلا مطلقو السراح وسيخفون لنجدتنا فى القريب . فليس علينا الآن إلا أن ننتظر فى يقظة وحزم تلك اليد التى ستمتد إلينا فى الظلام لنكون على تمام الأهبة للتعلق بها كى تخرجنا من الظلمات إلى النور .

وأحست بغريزة القيادة أن الرجال ينظرون إليها وقد عاد إليهم إيمانهم بها كاملا غير منقوص ، فأخذتها الحماسة وزادت ثقتهم بها فى ثقتها بنفسها ، وصاحت بهم .

– ثقوا أيها الرجال .. ثقوا بكل ما تقوله لكم « زهرتكم الذهبية » التي عرفتموها . واعلموا أنكم خارجون من سجنكم هذا عن قريب إلى فضاء الحرية والنضال من أجل أمنا الصين . وإنه لوعد حق ، لأنني أنا الذي وعدت .

ووقف الرجال وطاطأوا رؤوسهم صاغرين ؛ حتى سحرها السحر الذى ألقت على رجالها ، فصدقت هى ما قالت لهم . . . والتصديق كالمرض عدوى تسرى فى الجماعات .

وفى هذه اللحظة فتح باب السجن على مصراعيه ودخل الحراس بالسياط فاستاقوا أمامهم قطيع الأسرى إلى ضوء الشمس فى رحبة السجن ؛ فخرجوا متدافعين كما تتدافع الشياة تطاردها الذئاب ؛ وهم لا يدرون من فرط البغتة ماذا ينتظرهم هناك : أهو الموت العاجل ، أم هو العذاب ؛ أم هو مجرد السؤال والتحقيق ..

وخرجت « الزهرة الذهبية » معهم فى زيها الذى لا يختلف عن زيهم شيئاً ؛ وقد أسدلت قبعتها العريضة الأطراف الممزقة السقف فوق جبينها فلا تبدو عيناها للناظر المدقق إلا كخرزتين لامعتين فى أغوار من الظل والغموض . وكانت قد علمت رجالها ألا ينموا عليها ولا يلتفوا بها التفافاً خاصاً إذا اختلط المعسكران فى معمعان القتال . . .

ووقفت فى مؤخرة الصفوف ، وتلفتت كما تلفت كل واحد من أصحابها ، فإذا منصة فى صدر المكان فوقها قائد عظيم الرتبة كبير الجثة ، ودونه على الأرض ضباط شبان وبينهم محفة عليها جثة امرأة .

وتكلم الضابط ، ثم ترجم عنه ضابط يابانى شاب فإذا جلية الأمر أن القائد أعلن عن مكافأة كبيرة القدر لمن يأتيه بالزهرة الذهبية حية أو ميتة . وما البلج الصبح حتى أتاه ثلاثون من الصينيين بهذه المرأة المسجاة على المحفة ، يقولون إنها قائدتهم «والزهرة الذهبية» وإنهم قتلوها طمعاً فى الجعل المرصود . . . ؛

وأشار المترجم إلى صفين من رجال العصابات الصينية وقفوا خلف منصة القائد العظيم . وسأل المترجم الأسرى :

ـ أهؤلاء من أصحابكم ؟

وعرفوا فيهم بعض رفاقهم القدامى . . .

وعاد يسألهم وهو يشير إلى الجثة :

ـ وهذه المرأة . . . أهى زعيمتكم ؟

وأزيح الغطاء ، فإذا هى زوجة الحاكم الخائن الذى قتلوه بالأمس حين أخذوا البلدة المجاورة عنوة وهى عين المرأة التى ذبحتها « الزهرة الذهبية » بيدها !

وران على الأسرى صمت عميق ، لا يدرون بماذا يجيبون .

وقال واحد منهم أخيراً فى بلاهة وغفلة :

— إن للزهرة الذهبية جبيناً تعلوه آثار جرح قديم غائر فأين هو !

فلم تجد « الزهرة الذهبية » بدا من أن تثبت قبعتها على رأسها بحيث تخفى آثار جرحها القديم ، ثم تقدمت فشقت الصفوف ، ونظرت فى المرأة المسجاة على المحفة ونظرت فى عينى الضابط الشاب — وكان وسيما — وقالت له فى ثبات :

— إنها هى « الزهرة الذهبية » بعينها ، فقد عملت تحت قيادتها طويلا ، وأرى الطعنات الكثيرة قد غطت على آثار الندبة القديمة .

وانتهت المسألة عند هذا : فتسلم الرجال المكافأة ، وأمر القائد بحرق الجثة بعد أن أخذت لها عدة صور وأعيد الأسرى إلى سجنهم المعتم .

ولكن الزهرة ظلت تفكر فى الشبه الغريب الذى لحظته بينها وبين تلك المرأة القتيل . . .

* * *

ودخل الضابط الشاب مكتبه وشرع فى « تحميض » الصور التى أخذت لجثة المرأة القتيل . وما أن فرغ منها ونظر فيها

حتى لحظ ذلك الشبه الشديد بينها وبين ذلك « الجندى » الذى تقدم إليه وقرر أن القتيل هى « الزهرة الذهبية » بلحمها وعظامها . ولكنه استبعد بادئ الأمر ذلك الخاطر ، وجلس يفكر فى الأسابيع الأخيرة التى قضاها الجميع ، من القائد إلى أدنى « نفر » فى الجنود . وهم فى خوف مقيم من « الزهرة الذهبية » . فقد كانت تغير على غير انتظار ، وفى سرعة صاعقة حتى لكأنها جنى الخرافة يظهر فى أكثر من مكان واحد فى آن واحد .

لقد كانت هذه الأسابيع الأخيرة خير أيام قضاها فى الحرب : فقد كان فيها شيء من الإثارة لنفسه التى ركدت من كثرة ما تعودت الطاعة فى غير تفكير أو نقاش ، لأن الجندى مطالب بالعمل لا بالفهم ، فهو يسعى إلى غاية لا يدركها ، ويجرى وراء أمل لا يجنه قلبه ولا تخطر له فى نفسه صورة واضحة الخطوط والمعالم .

أما هذه « الزهرة » التى شهد اليوم جثتها فقد جعلت للحرب طعماً آخر : طعم المفاجأة والجرأة والذكاء والحنكة فى حرب العصابات . فهى قد انتصرت فى كل معركة خاضت غمارها . وحتى مماتها لم يكن لأعدائها فيه فضل . . . وكانت وديعة هادئة فى رقدتها الأخيرة . . . فلا بد أنهم فاجئوها وهى

نائمة ، وإلا لغلبتهم بنظرتها التى طالما أخضعتهم طيلة هذه السنين .

أجل إنها عدو ، ولكنها كانت عدوًّا كفئاً غير تافه ولا هزيل . وكانت لهذا جديرة – فى نظره – بميتة خير من هذه الميتة الخسيسة التى لا تليق بماض عريق .

وهز الشاب رأسه أسفاً وهو يسترجع صورة الأسرى من رجالها عند ما تبينوا أنها القتيل . فهم لم يحزنوا ولم يأسفوا بل سلموا بالأمر فى هدوء وسكون . . . فما أخس هؤلاء الصينيين : إنهم لا يقدرون مزايا الأبطال ولا يحفظون عهدا ، وإن جل العهد حتى تدق فى جانبه جلائل الوعود والأموال . . .

ولكنه شعب بليد . . .

وتذكر عندئذ أنه يجب أن يعرض الصور على قائده . ولكنه تحير : أيذكر للقائد ذلك الشبه الذى لاحظه بين القتيل و « الجندى » الأمرد الذى تعرف عليها . أم يلوذ بالصمت ؟

لا ينبغى أن يفضى بهذا للقائد إلا إذا استوثق منه بنفسه ، فأخذ الصور فى يده ودخل بنفسه إلى السجن المظلم وأخرج مصباحاً كهربائياً صغيرا فجعل يحرك بؤرة ضوئه متنقلا بين الوجوه الواجمة المتلاصقة . ولكن أين ذلك « الفتى » ؟

ها هو ذا أخيراً . . .

واقترب منه ونظر فى وجهه ثم رفع ذقنه بيده وأغمض الفتى عينيه حتى لا يرى الضابط فيهما الحقيقة مرتسمة بأجلى بيان . وكان هذا كل ما يعوز الضابط الشاب كى تتم المضاهاة بين الجندى والصورة المغمضة العينين إغماض الأبد .

وابتسم الضابط فى هدوء ، ومر بأصابعه على وجنة الفتى ، فإذا هى ناعمة لا أثر فيها للشعر . فابتسم مرة أخرى وخرج كما دخل فى هدوء .

وسأله الحارس وهو يغلق الباب :

ــ أهذا كل شىء يا سيدى ؟

ــ أجل . . . ومتى يعدم هؤلاء الأسرى ؟

ــ غداً يا سيدى .

* * *

وعاد الضابط الشاب إلى غرفته ، وجلس يحدق فى الأفق المشمس فى صمت ، فقد كان لا يدرى : أيقول للقائد كل شىء أم يسكت ؟ وماذا وراء الكلام ؟ إنهم سيعدمون جميعاً غداً ، وفيهم هذا الفتى ، ولن يترتب على رفع تقريره إلى القائد إلا إدانة ذلك القائد لأنه صرف مكافأة كبيرة لجماعة من المزورين وأخلى سبيلهم دون أن يتثبت بوجه

قاطع من صحة دعواهم .

وإذا أدين القائد الكبير ، فهل سيرضى بقية القواد الكبار عن عمله وهو ضابط صغير ؟ . . .

إنه لن يفيد شيئاً من إبلاغ الحقيقة إلى الرياسة ولن تخسر الدولة شيئاً إذا كتمها ، لأن الجميع سوف يعدمون غداً .

وغربت الشمس وهو لا يزال فى حيرة من أمره فعزم على الخروج إلى مرعى قريب تعود أن يخلو فيه إلى نفسه ، لعل النزهة تجلو له ما اضطرب من فكره فيهتدى إلى قرار سديد . ولكنه ما بلغ ذلك الموضع وجلس على شاطئ الجدول حتى امتدت من الظلام أيد خفية فحملته كأنه طفل ، فإذا به ملقى على الأرض فجرد من ثيابه كلها فوثق إلى شجرة ضخمة وثاقاً محكما متيناً .

وأنجز هذا العمل كله دون أن تبدو من القائمين به كلمة أو همسة ، وكان واحد منهم واقفاً عند رأسه وفى يده خنجر لامع النصل .

وكانت الدنيا تدور فى رأس الضابط الشاب : أيصرخ ؟ ولكن قبل أن يسمع صوته سيكون هذا الخنجر مغيباً فى صدره .

وهذه الثياب ، ثيابه الرسمية ، لماذا يريدونها ؟

لا بد أنهم يريدونها « للزهرة الذهبية » كى تلبسها وتفر فى حمايتها من سجنها العصبى .

أدرك هذا فسأل صاحب الخنجر :

ـ أمن أتباع « الزهرة الذهبية » أنتم ؟

فأجابه الرجل فى خشونة .

ـ لقد ماتت « الزهرة الذهبية » .

ـ إذن لماذا تريدون ثيابى ، إن لم يكن لها ؟ وإنه لشرف كبير لى أن تضع ملابسى فوق جسدها ، لأنها عدو عظيم ، والعظمة أولى بالإعجاب والتقدير ولو فى عدو . والروح الكبيرة الوثابة جديرة بالإكبار وإن سكنت هيكل امرأة . . . ومهما يكن ما تريدون ، فأسرعوا به ، فإن الأسرى سيعدموه صباح غد .

وعندئذ غض صاحب الخنجر من بصره فى طيبة ظاهرة ، واسترخت يده المرفوعة بالخنجر ، ثم انطلقوا وتركوا الضابط الموثق فى العراء . . .

وظل يرتجف من البرد والإعياء حتى سطع الفجر ، فإذا جواد يقترب من الموضع الذى شد فيه وثاقه ، وإذا شبح يقترب منه تتبعه أشباح .

أهذيان الحمى أم رؤيا حلم ؟

إن ما يراه أمامه إن هو إلا ثوبه العسكرى ، تطل من فوقه عينان دقيقتان . وحدقت العينان فيه ثم امتدت يد فغرست فى لحم صدره شيئاً معدنياً ، وابتسمت ابتسامة غامضة سريعة وقالت بصوت هادئ .

ــ إنه يرتجف . فكوا وثاقه .

وقطعت الحبال فى سرعة فسقط فى مكانه لا يريم ، وانصرفت الأشباح فى سرعة وسكون .

ومد يده فانتزع من لحم صدره ذلك الشىء ، فإذا به قطعة من المعدن المذهب على شكل زهرة صغيرة . فأخفاها فى راحته ، ثم راح فى غيبوبة ، وهو يحسب أنه لن يفيق منها أبدا . . . ولكنه ثاب إلى نفسه بعد فترة من الوقت ، فإذا به فى سريره ، ومن حوله زملاء يعنون به ، وإذا فى كفه تلك القطعة من المعدن تنفى من نفسه الشك فى حقيقة ما حدث له .

ــ لا تتحرك أيها الزميل . لقد وجدك جنديان ذهبا يستقيان للمعسكر ، فحملاك إلى هنا عند إشراق الشمس

وشرعوا يقصون عليه خبر ثلاثمائة رجل من أتباع « الزهرة الذهبية » جاؤوا فى ضوء القمر يلقون السلاح مسلمين ، طالبين أن يوقف إعدام زملائهم على أن يستسلم سائر الجيش بعد تأمينهم على أرواحهم والعفو عن زملائهم جميعاً .

وقبل القائد هذا العرض حتى يتخلص من هذه الحرب المزعجة التى لا يخمد لها أوار . واودع الجميع رحبة المعسكر ، لأن السجن أصبح يضيق بهم وهم زهاء أربعمائة . وهم الآن فى انتظار مقابلة القائد الذى سيتلقى منهم — بعد الإفطار طبعاً — يمين الولاء نيابة عن الإمبراطور .

واستجمع الشاب الخائر القوة أنفاسه وقال لهم :

— أبلغوا القائد أننى أريد أن أراه .

فربت أصحابه على كتفه وضحكوا قائلين :

— إنه الساعة فى شغل عنك . . .

ولم تسعفه قواه الخائرة بمدد يكفى للجدل أو الإلحاح فى الطلب .

إن « الزهرة » قد فرت فى ثوبه العسكرى ، لا شك فى هذا ، وقد خرجت عند الفجر كما يخرج الكثيرون من الضباط للرياضة أو تمرينات الصباح الباكر ، ولا شك أن المستسلمين ليسوا إلا كميناً مبيتا فى المعسكر ، كى يقع اليابانيون بين نارين من الخارج ومن الداخل . . .

— قولوا له إننى أريده . . . لأمر حيوى . . .

ولكن صوته ضاع ، لا لأنه كان خافتاً فحسب ، بل لأن جلبة قوية قد ارتفعت فى المعسكر الكبير .

* * *

وفى فجر ذلك اليوم ، قبل هذه الأحداث بساعات ، وقفت « الزهرة الذهبية » فى ثوبها العسكرى الجديد تخطب أصحابها :

ــ لقد أقسمت أن آخذ معسكرهم عنوة ، ثم آخذ بعد ذلك عاصمة الإقليم .

وسكت الجنود بين مكذب ومصدق ، ثم تشجع واحد منهم وقال بصوت واضح على تردده :

والذخيرة أيتها الزهرة الذهبية ؟

فابتسمت الزهرة الذهبية ابتسامتها الغامضة الماكرة وقالت له :

ــ ذخيرتنا أيها الأحمق الحبيب فى المعسكر ، عند اليابانيين. لماذا إذن تحسبنى تركت أربعمائة من رجالى بين أيديهم ؟ إنهم سيهجمون من الداخل عند ما نهجم نحن من الخارج ، وبهذا نضمن ذخيرة كاملة وافية القدر وسلاحاً مكدساً قوياً يكفل لنا هجوماً موفقاً على العاصمة أيها الرفيق الذكى !

وضحك الرجال ، وأقبلوا على قصاع الأرز يلتهمونها فى نهم ، قبل أن يشرعوا فى هجومهم على المعسكر الكبير .

* * *

امرأة تبز الرجال فى قيادة الرجال .

ولكنها امرأة فى كل حال :

كانت امرأة رجل قوى باطش ، فلما اختفى من الأرض ظله ، آلت على نفسها أن تكون امتداداً له ، فيوجد فى وجودها ، ولو كلفها هذا أن تلغى وجود المرأة فيها .

فهى حواء حين تغلو فى انتحال آدم . لأنها إنما آلت إلى هذا المآل بدافع الأنوثة التى تلوذ بالرجال ، حتى تنسى فى هذا اللياذ وجودها الأصيل . . .

٣ ــ فوق آدم

جان دارك

فلورنس نايتنجيل

بوديث

١ – چان دارك

كل شيء حولها كان يدعو إلى ظهور دعوتها ، أو دعواها. فوالداها من التقاة المصلين ، وأمها ممن حججن إلى روما . حتى كانت تكنى « الرومية » ، والحياة حولها – فى أوائل القرن الخامس عشر – مأنوسة بجو غريب ، يخالف ما نعهده من صور الحياة اليوم وبخاصة فى الحواضر ، فالناس فى ذلك العهد كانوا يؤمنون بالأرواح عاليها وسفليها ، ويؤمنون بالخوارق يرونها فى مناسبتها وغير مناسبتها ، فلا حجاز بين الأرض والسماء ، ولا بين الناس والأبالسة ، فالحياة مشاع مظاهرها بين الملائكة والإنس والشياطين ، فليس يتسنى الجزم لعقل الفلاح البسيط فى ذلك العهد أن هذه الظاهرة طبيعية أو أعجوبية ، وأن تلك الظاهرة أحدثتها عناية السماء أو نصبتها غواية للناس رقية ساحر أو نفثة شيطان . . .

والناس قد ابتلوا فى فرنسا لذلك الحين بتلك الحرب التى تهدد كيان « بنت الكنيسة البكر » ، حتى جعلت القرى والدساكر حصاداً مباحاً للدمار ، والسلب وانتهاك الحرمات بيد هذا الفريق أو ذاك ، من فرنسيين برجنديين ، أو فرنسيين

ملكيين ، أو إنجليز غازين .

ولكن هذا الجو وحده لا يكفى ، بل هو لا يؤدى لزاماً إلى ظهور چان دارك أو شخصية من طرازها الفريد . . . فالفلاحات ربيبات البيوت التقية فى بيئتها كثر ، بل إن النخوة والنجدة من فتى كانت أولى . فما كان أحراها أن تعد نفسها للحياة التى أهلها الله لها فيما يلوح ، وهى الزواج من مزارع مستقيم ميسور الحال ، فتدبر أمر المزرعة وتنجب البنين . . .

بل إن هذا هو الطريق الذى اعتقد أبوها وغير أبيها من الأهل والعشيرة أن الله قد اختاره لها كما اختاره لأمها وبنات سنخها من قبل . . .

ولكن طرق الله غريبة ، فى عين العباد على الأقل ، فى بعض الأحيان . . . فهو طالما اختار لجسيمات الأمور من يبدون أبعد الناس عن الاضطلاع بها ، فما مِن رسول كان من أهل السلطان ، أو التفقه فى علوم الزمان ، ويناط بهم مع هذا تغيير موازين السلطان وأركان التفكير . . .

وكان الطريق الذى شعرت الفتاة الفلاحة الأمية أن الله رسمه لها هو طرد الإنجليز من فرنسا ، وصيانة وحدتها ، وتتويج ولى عهدها ملكاً شرعياً عليها . . .

وفى الليلة الظلماء يفتقـــد البدر ، وفى ساعات اليأس

يتطلع الناس إلى فرجة أمل فيتشبثون بها ، ولهذا كان ظهور چان بدعوى تكليفها من قبل الله بإنقاذ فرنسا من الهزيمة مناسباً فى أوانه وعنوانه ، لأن السماء وحدها هى السلطة القادرة على ما عجز عنه الملوك والقواد والجحافل ، ولأن المناداة فى الناس أن السماء معنية بأمرهم مشغولة بتفريج كربهم شيء يلاقى فى نفوسهم هوى بقدر ما يفتح أمامهم من أبواب الآمال ، ولأن اضطلاع فتاة ساذجة مغمورة من العامة بهذا الأمر يعطيه الصبغة الأعجوبية ويحيطه بجو من الأسرار ، فلو كان الأمر من عند الناس لاختاروا له ذا سلطان . . . ولكن إذا كان من عند الله نهض به أضعف الخلق ، لأن الفاعل الحقيقى هو العناية الصمدانية .

هذا تحليل وتعليل بلسان المعقول . .

ولكن هل قدرت چان هذا التقدير ، ودبرت هذا التدبير وهى العذراء الأمية التى لم تتجاوز السادسة عشرة ؟ وهل هى مؤامرة عقلية أم هى دفعة إلهامية من دفعات العبقرية تعلل بعد أن تقطع فى الأمر برأى ، فإذا التعليل المعقول وفاق البديهة المرسلة على طويتها ؟

الأرجح أنه الإلهام أو أنها العبقرية ، لأن التدبير لا تتوفر أسبابه لمثلها ، ومن أسبابه معرفة روح الاجتماع معرفة واسعة

عميقة معاً ، ثم إن التدبير لا يعطى فى ذاته شجاعة كافية على تنفيذ مثل هذا المطلب المبعد فى الغرابة لفتاة ساذجة من الطبقة العامة . بل إنها لو فكرت وكان الأمر بيدها لكانت حرية أن تحجم كل الإحجام عن المجاهرة بأنها هى التى ستقود الجيوش إلى النصر حيث انهزم دهاقين القواد ، وأنها هى التى ستتوج الملك . . . ومن هى ؟

لو فكرت لما فعلت . ولو دبرت لما أقدمت ، ولكنها أقدمت ومضت لأنها كانت مغلوبة على أمرها ، مسخرة لقوة لاتملك مقاومتها ، تدعوها قوة الإلهام ، أو تدعوها قوة الإيمان أو تدعوها قوة العبقرية ، أنت وما تشاء ، ولكنها قوة فوق قوى العقل القياسى ، وفوق ما أتيح « لبنى آدم » المائتين من مصادر الحياة وملكاتها ومظاهرها . .

* * *

وحتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، كانت فتاة ككل فتاة فى سنها ، تجيد مهنة البيت وخدمة الضيعة ورعاية الماشية وأشغال التطريز ، وهى الثقافة النسوية المطلوبة فى الفتاة فى ذلك العصر . وكان بيت آلها فى ظل كنيسة القديس « ريمى » الذى باسمه قامت كنيسة « د ومر يمى » كما قامت باسمه كاتدرائية « ريمس » التى كتب لها أن تتوج فيها ملك فرنسا

بعد ذلك . . . فكانت چان تتعبد فيها كل يوم ، أو تتعبد في حديقة بيتها فكأنها في الكنيسة ، لأن برجها وهيكلها ماثلان لها حيث تكون .

وفي سن الثالثة عشرة بدأت تسمع « الأصوات » تناديها ، داعية إياها إلى التزام طريق البر ، فنذرت للتدين قلبها منذ ذلك اليوم . وكانت تعتقد أن في جملة تلك الأصوات ، صوت القديسة كترين والقديسة « مرجريت » .

وسواء كانت هذه الأصوات نتيجة لتعلق قلبها بالدين وجوه الصوفي ، وهو جو لا تستغرب سبحاته وشطحاته ممن يجتازون مرحلة المراهقة بعد نشأة دينية — أو كانت الأصوات كما تقدر هي سبباً في انهماكها في الصلاة والتدين ، فالأصوات نفسها ليست ظاهرة مستحيلة الوقوع على غرابتها . فكل تلك الألوان من الرؤى التي تحدث في حالات اليقظة من أصوات ومناظر غيبية — بمعنى أنها غير حادثة عن مؤثر محسوس مباشر — ليست في الواقع أكثر غرابة من الأحلام التي تعرض للنائم في كل يوم . . . ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا رؤى المنام كانت تعتبر ورؤى اليقظة من فعل فاعل غير طبيعي ، كأن تكون غواية شيطان أو نذيراً من الله . ولكن ما يحدث في المنام أصبح الآن أمراً طبيعياً لا سر فيه ، ولم يبق في عالم

الأسرار إلا ما يرى أو يسمع فى حلم اليقظة . ولعل ندرة هذه الظاهرة من أهم عوامل بقائها متعلقة بعالم الغيبيات . إلا أن هذا حرى أن يبطل إذا علمنا أن النفس تنطوى على سراديب وطبقات لا تنكشف للوعى الظاهر فى كل حين . وإن من عمليات التخيل والتذكر ما يخاطب السمع والبصر كأن موضوعاتهما حاضرة وما هى بحاضرة . فكذلك قد يمثل الاستغراق فى حالة نفسية معينة كأن صوتاً أو رسماً يخاطب الأذن أو العين ، وليس من ذلك كله شيء محسوس .

ولكن ليس معنى هذا أن ما يتمثل فى رؤيا اليقظة وهم من أوهام الإيحاء الذاتى . . . فالعقيدة بما هى حالة نفسية حقيقة لا وهم فيها ، وموضوع العقيدة الروحية خارج بطبيعته عن متناول الحس ، فالاتصال به لا يكون إلا بالوجدان — أو عن طريق القلب لا العقل كما يقول أهل التصوف — وأحوال الوجدان قد تستعير تجسمات الحس لخطاب صاحبها . . .

وما الحس نفسه فى آخر المطاف ؟

إنه حالة ذاتية غير أصيلة فى المحسوس ، بل هى كلها من انفعال الذات التى تحس . . . فلا غرابة أن تنفعل الذات الحاسة بموضوع يقع تحت الحواس كلها أو يقع تحت بعض منها دون البعض الآخر ، ما دام الأثر الحسى قد وقع .

فالقول باستحالة « الأصوات » أصلا لا يمكن القطع به دون مجافاة لقواعد العقل المنطق الصريح . والخرافة الكبرى ولا مراء هى الجزم بأن ما لا يقع لكل إنسان فى كل آن فهو خرافة . . .

* * *

وظلت الأصوات تتراءى لسمعها حتى إذا بلغت السادسة عشرة ، انتقلت الأصوات من الحث عل الصلاة إلى ميدان لا يؤلف أن تخاطب فى خوضه فتاة ولا سيما فى سنها ونشأتها : قيل لها إنها مكلفة بإنقاذ فرنسا ، وطرد الإنجليز منها ، وصيانة وحدتها بتنصيب ولى العهد ملكاً عليها . فلما فاتحت والدها فى الانضمام إلى الجيش نهرها — وحق له أن يفعل — فما كانت النسوة اللواتى يتبعن الجيش إلا الساقطات من أحلاس مجالس الشراب . ، وزاد الرجل التقى الغيور على عرضه فتوعدها بالإغراق فى النهر إذا أقدمت على شيء من هذا أو همت به . ولكن « الأصوات » لم تترك لها فرصة للراحة حتى كاد عقلها يذهب . فعمدت إلى الهرب فى عربة قريب لأمها إلى «فوكلير» التى كان يقود حاميتها القائد « بودريكور » وطلبت إليه فى بساطة أن يبعث بها مع ثلة من الجنود إلى « شينون » لتقابل ولى العهد لأنها بسبيل تتويجه ! فأيقن الرجل أن بها لوثة فردها

إلى أهلها . ولكنها لم تترك لهم راحة فى ليل أو نهار ، وإنما هى الأصوات تلاحقها ، وتلاحقهم هى بحديثها ، حتى كان أكتوبر سنة ١٤٢٩ وحاصر الإنجليز أورليان ليكسروا خط دفاع « اللوار » وينفذوا إلى أملاك ولى العهد الباقية له جنوب ذلك النهر ، واستعدوا لذلك المطلب استعداداً ضخماً عنيفاً ، فقد كانت أورليان على جانب من التحصين عظيم ، وفى جملة أسلحتها الدفاعية ٢٥٠ مدفعاً من (عيارات) مختلفة ، وهى فى ذلك العصر قوة هائلة . فأعد الإنجليز فيها أعدوا اثنى عشر منجنيقاً كبيراً تقذفها بالحجارة الضخمة وشعلات اللهب . وأثار حصار أورليان قلقاً كبيراً فى فرنسا كلها ، حتى إذا بلغ النبأ « دومريمى » قامت له قائمة الفتاة البتول ، وأصرت أن تعاود الكرة لنصرة الملك وتتويجه. فتوجهت مرة أخرى إلى «بودريكور» ولكنه رفض أن يأخذ دعواها مأخذ الجد ، رغم إلحاحها عليه ثلاثة أسابيع سوياً إلحاحاً شديداً تؤيدها فيه بعض عناصر العامة وأهل المهن المدنية بوجه عام .

وإنه لمحق . . .

فهو جندى محترف ، وأى قيمة تبقى لحرفة الجندية ، إذا سلم أصحابها بفشل أسباب حرفتهم حيث يناط النجاح بفتاة غريرة وإن آزرتها ملائكة من عليين ؟ . . دون تصديقها

وتمكين الأسباب لها إذن إلغاء وجوده ووجود الحرفة التي يتقوم بها . . .

ولكن رجلا آخر ، لم يكن فيما يظهر جندياً صرفاً فى طبيعة عقليته ووجدانه ، هو « چان دى متز » صدقها وآمن بما قالت له من أن فرنسا مسئولة أن تنقذ نفسها بنفسها فلا تعول فى أمر حياتها وموتها على معونة أهل اسكتلندة التي وعدوا بها ولى العهد وأعطاها چان ملابس رجل ، واكتتب لها أهل البلدة (فوكولير) فاشتروا لها جواداً . . .

وقبل أن ترحل وردت الأنباء بكارثة « فوفراى» ، فاستولى الحزن على الضباط ، وتحرك قلب « بودريكور » نفسه ، إذ تزعزع إيمانه الأصلى بجاه الفن العسكرى ، وغلبت عليه مشاعر المواطن المتأثر بما يتأثر به أهل عصره عامة ، وهزته الحماسة التي أثارتها « چان دارك » ولمست نفسه جذوة الأمل التي تفردت بإشعالها فى ظلام اليأس المطبق ، فانتزع فى ساعة رحيلها إلى مقر الملك فى شينون سيفه وقلدها إياه . . .

وودعت عذراء دومريمى وداعاً مؤثراً ، حتى بكى الناس ، فقد جعلتهم يشعرون أن أمل فرنسا فى الخلاص معقود بها ... وخرجت على رأس كوكبة من الرجال يحرسونها ، وهى فى مثل بزتهم ، فاخترقوا مواطن البرجنديين أحلاف الإنجليز بسلام

حتى وصلت « شينون » .

* * *

وماذا تراها وجدت فى شينون ؟

لم تجد الملك الذى يتصوره الإنسان إذا قيل « ملك » . ولم تجد المحارب الذى يتصوره الإنسان إذا ذكر تنازع على العرش بين وارث وغاصب . ولم تجد المهتم المتدبر الذى يتصوره الإنسان إذا قيل محنة محدقة وأمر حازب .

بل وجدت رجلا لا يحسن تقدير الظروف المحيطة به ، وحوله قوم ليسوا أرقى منه إدراكاً ، تنقصهم الحنكة ، وينقصهم على وجه الخصوص الإخلاص والإيمان والأريحية . فهو شاب قليل الثقة بنفسه ، ضعيف الإرادة والإدراك ، حوله بطانة خادعة عابثة ، تترك للمقادير أن تفعل ما تشاء . فهو لهذا يميل إلى المهادنة على حساب حقه ، وإلى المراوغة دون المواجهة ، شأن الضعاف دائماً . . .

هذه البطانة العابثة كانت أبعد الأشياء عن صفات « جان دارك » فى إيمانها وقوتها وإقدامها وأريحيتها . لهذا كان أول ما أشير به على ولى العهد المتردد كأنه قصبة تحركها كل ريح ، أن يسخروا من الفتاة الوافدة ومن دعواها السماوية ، بأن يختبئ الملك بين صفوف الحاشية ، ويتقلد أحد المجان من بطانته

لباسه ، ويقف فوق منصة الشرف ويخاطبها كأنه هو ولى العهد فيهزأ بها .

وشهد البلاط يومئذ مشهداً عجباً : الفتاة فى زى الجنود تتقدم فتحدق فى المدعى الماجن ولا ترد عليه خطابه ، ويرتسم على وجهها الشعور بالضيق ، ثم تشيح عنه ، وتجوس بين الحضور بنظرات شاردة ، حتى تقع على ولى العهد المنزوى فى ثياب بسيطة فتركع أمامه وتقبل ركبتيه ، علامة على الخضوع والولاء . . . فيبهت الحضور ، وترتسم على وجوههم جميعاً علامات التعجب والاستفهام . ويسألها ولى العهد مزيداً من البرهان على سماوية رسالتها ، فتطلب أن تختلى به لتنبئه بما لا يعرفه أحد على الإطلاق من شأنه الخاص . . .

ولا يعرف أحد ماذا قالت له فى تلك المقابلة ، ولكن الثابت أن ولى العهد خرج من ذلك اللقاء متغير الوجه ساكن النفس ميالا إلى تصديقها ، ولكنه تحفظ فى إعلان ذلك حتى يختبرها نفر من رجال الكنيسة ، ليثبت أولا أن قواها الخارقة مصدرها من أعلى لا من أسفل ، من الله لا من إبليس . . .

وعقد المجلس الدينى جلساته ، ثم أفتى بصحة معتقدها وسلامة إيمانها الدينى وصدقها فى دعواها . فألبست درعاً أبيض ، عليه صليب ، وجعلت لها حاشية من كاهن ووصيفين ،

واتخذت لنفسها علماً كالذى يتخذه القواد العسكريون لأنفسهم ، وجردت جيشاً من أربعة آلاف لتخليص أورليان من حصار الإنجليز . وكانت غالبية ذلك الجيش من الفلاحين الذين آمنوا بها فأقبلوا بركائبهم الريفية وفئوسهم لينضووا تحت لوائها الأبيض الذى يعلوه اسم المسيح .

وكان دخولها أورليان بذلك الجيش المتحمس إلى درجة الهوس عاملا كبيراً فى تغيير الحالة المعنوية بين المحصورين ، فقوى الأمل ، حتى بات يقيناً ، فمن أقوى من الله سنداً وأعلى مدداً ؟ ولو فى مكان « چان » فارس تمرس بالحرب ما صدقوا أنه مبعوث من الله لنصرتهم ، ولكن مرأى تلك الفتاة القانتة الطاهرة ابتعث كوامن الإيمان والتعلق بالأسرار فى تلك النفوس السليمة الطوية . . .

وكانت عدة الإنجليز الذين يهاجمون أورليان أكثر من عشرة آلاف ، فما دخلت أورليان فى ٢٨ من أبريل ، حتى أعلنت الإنجليز فى الثلاثين من ذلك الشهر نفسه أى بعد يومين اثنين — بوجوب الرحيل الناجز ، وكررت النذير فى اليوم التالى ، فلما كان يوم ٥ من مايو ولم يرحلوا ، خرجت إليهم من الحصن وهاجمت مواضع المنجنيقات الحصينة فاستولت عليها ثم استولت على رأس القنطرة التى منها يعبرون إلى ضفة

اللوار المشرفة عليها أورليان ، وكان رأس القنطرة قلعة « توريل » وهى قلعة حصينة استماتت الإنجليز فى الدفاع عنها لأنها نقطة ارتكازهم فى حصار المدينة والنفاذ إلى أملاك ولى العهد .

وتجلت شجاعة چان الفائقة فى ذلك الهجوم على القلعة ، فإنها كانت أول من وضع سلماً على حائط الحصن ، وتسلقته وفى يدها علمها الأبيض ، وسيفها فى يمناها تلوح به وتصيح بأعلى صوتها محمسة الجنود ، وشعرها الأشقر يتطاير فى الهواء . . .

واستهدفها رام فأصابها سهم فى كتفها ، فنقلوها مغمى عليها إلى ظل شجرة ، ورآها رجالها تسقط فحسبوها ماتت فشاع فيهم الاضطراب ونادى مناديهم فى النفير أن تقهقروا . . .

وأفاقت چان على صوت النفير فاستشاطت غضباً ، وأمرت بصيحة الهجوم أن تنفخ كرة أخرى ، ونزعوا السهم وهى متجلدة ، ثم استلت سيفها وتابعت الهجوم ، حتى استولت على القلعة فى تلك الليلة وانتحر قائدها السكسونى غيظاً وخجلا أن تهزمه امرأة ! .

وهكذا رفع حصار أورليان .

وتوالت بعدها هزائم الإنجليز ، وقد رسخ فى أذهان الجنود من الجانبين أن چان قديسة ، ومن ذا يحارب جند السماء بقلب سليم ؟

وذهبت چان إلى الملك وطلبت إليه أن يزحف إلى « ريمس » فدخلها معها فى ١٤ من يوليه ، وتوج فى كنيستها الكبرى بعد يومين من ذلك التاريخ ، وكانت چان تحمل علمها الظافر وتقف فى مكان الشرف ، والشعب والجنود يحيونها بالهتاف القاصف . . .

فبماذا أنتصرت چان ؟

انتصرت بقلب قوى وفكر عسكرى مرتب يرتقى إلى مرتبة الإلهام ، لأنه ليس من صنع التعليم ، بل هو من فيض العبقرية التى لا تناقش ، وهى تصدر عن الرأى الصواب دون تدبر ، حتى إذا امتحنه العقل وجده وفق منطقه وإن لم يصدر عنه .

وانتصرت بما بثت فى الجند من روح جديدة ، فقد دعت جندها إلى التطهر لأنهم جند الله ، وينبغى أن يجعلوا قلوبهم وسلوكهم أهلا لحلوله بينهم ، فطردت النسوة الساقطات اللواتى يتبعن الجيش ، وحرمت على الجنود العربدة والميسر ونابى اللفظ ، ففعلوا . ومنحهم هذا التوقر والتصون روحاً جديدة ، هى الشعور بالسمو . . .

سداد الرأى وشجاعة الإيمان .

ذانهما سلاحا كل حرب ظافرة مهما اختلفت الظروف والميادين

* * *

وطلبت إلى الملك غداة التتويج أن تزحف على باريس ، ولكنه جعل يماطل . بحجة انشغاله بمفاوضات للصلح مع دوق برغنديا .

ففيم هذا المطل ؟

إنها وسوسة نفس الملك ووسوسة حاشيته التي يأكلها الحسد في وقت واحد .

إنه حسد الضعفاء للأقوياء ، وحسد الأغمار لأهل النباهة والعبقرية . وليس أغير من ذوى السلطان على سلطانهم من كل ما من شأنه أن يكسف أبهته ، ولو كان قيام هذا المجد المحسود لصالح سلطانهم ودفع الخطر عنه .

وفي تاريخ جميع القواد نظير لهذا الحسد العجيب ، فالقائد العبقرى « بليزاريوس » تاريخه كله سلسلة متصلة من الغبن والحسد بسبب تفوقه وذكائه . . . حسداً لاحقه به « جستنيان » الذى خدمه ذلك القائد بكل إخلاص ، وكانت انتصاراته هي سند عرشه وحامى أطراف ملكه من أفدح الأخطار . . .

ولكن الغيرة من چان من طراز آخر ، فهى تثير حسد القواد المحترفين لأنها نجحت حيث فشلوا وليست لها رتبة عسكرية مما يعتزون به . وأثارت حسد أهل السياسة لأنها نجحت حيث

قدروا أن هذا ميدانهم الفريد . وحسد الملك لأنها أسدت إليه يداً أمام الملأ، فنصرته بعد هزيمة وأعزته بعد ذلة . . . فما أخوفه من سلطانها الذى تصله بسلطان الله . . . وتعززه بقوةالسلاح .

فليكن هدفه إذن أن يقف نفوذها عند هذا ، فلا تقضى على أعدائه فتنفرد بالمكانة العسكرية ، ويضحى تحت رحمتها . وخير له أن تكون هناك قوتان لا قوة واحدة تنفرد بالميدان ، فنى ذلك التفرد : سواء فى جانب الإنجليز أو جانب چان، خطر عليه ، الإنجليز خطر عليه مباشرة ، وچان خطر عليه غير مباشر ، ولكنه خطر ليس أهون من خطر الإنجليز ، لأن نجاحها فى القضاء عليهم نهائياً تتويج لسلطانها الروحى بحيث يضحى الى جانبها مجرد ظل ضئيل لا حياة له إلا برضاها ولا نفوذ إلا من فضلة ما تتصدق عليه به من نفوذها .

وتلك دواماً آفة المخلصين من خدام الدول الأقوياء ، ابتلى بها « بليزاريوس » ويبتلى بها فى كل يوم أهل السياسة فى كل دولة يسودها الختل والضعف : يخشى الضعاف من صولة القوى، ولا يصدقون أنه مخلص لا مأرب له ، لأنهم ليسوا من معدن الأبطال المخلصين ذوى القلوب السليمة . . . فيحاربون من يسدون إليهم الخير ، لأنهم يقدرون أن من يملك الإحسان فهو يملك الإساءة . . .

ومن هذا الجانب دون غيره نجمت مأساة «چان» . فهى قد حكم عليها بالموت يوم التتويج لا يوم أدانوها فى ساحة « روان ».

وقيل للملك الذى أجلسته على عرشه إنها طموح ، ولهذا وقفت بعلمها المشهور فى جواره ساعة التتويج ، وعليها زردها ودرعها . . . كأنها تزهو عليه وتمن . وتلكأ الرجل ، ولكنها زحفت على كومبينى وسنليس وبوڤيه ، وتلقت عن الملك طاعتها جميعاً لسلطانه ؛ وطردت من بوڤيه أسقفها « كوشون » الضالع مع البرجنديين والإنجليز ، وكوشون هذا هو الذى سيدينها فى محاكمتها وسيؤلب عليها الأعداء .

وأسرع الملك فعقد الهدنة مع البرجنديين ، فاضطرت إلى العودة ، وقبعت فى البلاط ، حيث موهوا على حسب العادة الاستغناء عن نشاطها برفعها إلى مرتبة الأشراف وإعفاء قريتها دومريمى من الضرائب .

ولكن الهدنة لم تلبث أن انتهت بعد أشهر معدودة ، وكان دوق برجنديا الأعور قد اتفق مع الإنجليز سراً أن يعطوه « شامپانى » لقاء سماحه لهم بالاستعانة برعاياه وتحصين باريس وما حولها ، وأهم تلك الأرباض عسكرياً هى قرية « كومبينى » التى كانت « چان » قد ضمتها إلى أملاك التاج تمهيداً للزحف على باريس .

وكانت « چان » يقظة لهذه الحركات ، مدركة خطرها فما انقض الإنجليز والبرجنديون على « كومبينى » حتى كانت فى أعقابهم لنجدة « أصدقائها » أهل كومبينى — كما كانت تدعوهم — على رأس فئة قليلة فدخلت المدينة بغير مقاومة فى شهر مايو سنة ١٤٣٠ . وكان معسكر البرجنديين على الضفة المقابلة ؛ فعبرت إليهم بعد الظهر فى خمسمائة مقاتل ، ولكن الجماعة المرتجلة التى قامت بالحملة لم تلبث أن ارتدت أمام البرجنديين . وأسرعت إلى المدينة ، ورفع قائدهم الجسر المتحرك لكى يغطى حركة انسحابهم ؛ وكانت « چان » لا تزال فى العدوة الأخرى تناوش المطاردين حتى تعوقهم عن اللحاق بأصحابها ، فوجدت الجسر قد رفع ؛ ووقعت أسيرة فى يد البرجنديين فى تلك الليلة . وأخذت إلى المعسكر حيث تلقاها الدوق بالاعتبار اللائق .

وكان فداء الأسر من حق هذا الدوق ، فجعل فديتها مبلغاً طائلا ، هو فدية ملك ، وتوقعت چان أن يبادر الملك الذى توجته ونصرته بدفع الفدية المطلوبة . ولكن انتظارها طال ونعلم فيما بعد أن أحداً فى ذلك البلاط الذى يموج بالأشراف لم يفكر فى إنقاذ تلك التى صنعت الخوارق وأقالت دولتهم من عثرتها .

وفى نفس هذا الوقت كان « بدفورد » القائد الإنجليزى يدرك بعقليته السياسية مبلغ ما للقضاء على نفوذها الدينى من الأهمية لأن بقاء صفة القداسة لاصقة بها يجعلها خطراً فى المستقبل عليهم ، ولو أعدموها . فإنها تكون شهيدة فى نظر الناس ، ويتألبون للانتقام لها . فكان لزاماً — فى نظره — أن يستخدم نفوذ الكنيسة فى محاكمتها دينياً لا عسكرياً ، وتجريحها من ناحية العقيدة والقداسة ، ليقضى على تأثيرها بعد موتها فى نفوس الناس .

بل إن القضاء على منزلتها الدينية يفضى بالتالى إلى تجريح شرعية الملك الذى توجته وقادته إلى النصر . ويقضى على ما تولد فى نفسه من الثقة بنصر الله له واهتمام السماء بعرشه . لهذا لم يعدموها فوراً ، وكان ذلك فى يدهم ، بل دفعوا فديتها الجنيهات العشرة آلاف ، على يد الأسقف كوشون الذى طردته جان من مركز سلطته بوفيه عند ما فتحتها ، وألفت محكمة دينية بحتة فى « روان » لمحاكمتها بتهمة الإلحاد والسحر والشعوذة والاتصال بالأرواح الشريرة .

وقصة محاكمتها أشهر من أن تعرف ، وقد أظهرت فيها ثباتاً عجيباً ، وكانت ردودها البسيطة القوية مفحمة لجميع من اجتمعوا على استجوابها من الفقهاء فى الدين والقانون الكنسى .

ولما أصر القضاة على التحامل عليها تحاملا ظاهراً ، وقرروا إدانتها ، استأنفت الحكم إلى البابا فى روما ، كما هو حق كل من يحكم عليه بالكفر والفصل من الكنيسة . ولكن طلبها هذا رفض وأحرقت حية .

والملك لا يحرك ساكناً ، والقواد لا يتحركون ، وأهل السياسة لا يساومون على سلامتها .

وكانت خطة الملك فيما يلوح أن التخلص منها يقضى على خطرها من جهته ، ويقوى مركزها بعد موتها شهيدة فى نظر المؤمنين بها ، فتقوى عزيمتهم فى الانتقام لها ومؤازرة قضيتها ، التى هى فى الواقع قضيته هو دون غيره . فيستفيد من شهادتها ما لا يفيده من حياتها ، فائدة لا يتوجس معها من خطر على سلطانه .

ومهما يكن من أمر ، فقد صح تقديره ، ودانت له باريس ، وطرد الإنجليز من فرنسا كلها . ولكن الوصمة ، وصمة النذالة ، ظلت عالقة بطيلسانه ، فاجتهد بعد استشهادها بعشرين سنة أن يحرك القضية أمام البابا ، وإن يستصدر منه حكماً ببراءة ساحتها مما عزى إليها ، وبتكفير كوشون وسائر قضاتها ، وإلغاء حكمهم الظالم .

وبعد خمسة قرون أعلنت الكنيسة أن جان دارك عذراء

أورليان التى استشهدت محترقة وهى دون العشرين قد أصبحت فى عداد القديسين . . .

وإنها لقديسة حقاً ، بمعنى دينى ، وبمعنى إنسانى فى آن ، لأنها عبقرية نادرة ، من العبقريات القليلة التى ترتفع بأصحابها وصاحباتها فوق ذرية آدم ، فتكون على الدوام نوراً يهدى لا ناراً تحرق ، وإن اكتوت هى بنيران الخسة ممن تضىء لهم وتهديهم سواء السبيل .

٢ — فلورنس نايتنجيل

لئن كانت چان دارك أعظم من آدم بمدد من قوة الروح وإلهام الإيمان الذى لا ينفصل عن فيوض السماء العلوية وأنوارها القدسية ، فمن النساء من هى أعظم من آدم بمدد لا يرتفع إلى السماء حتى تنبت صلته بالأرض ، وإنما هى عظمة إنسانية فى لحمتها وسداها ، بشرية خالصة فى أعمق أغوارها وأبعد مداها .

ومن هذا القبيل الأخير عظمة « فلورنس نايتنجيل » التى تنفرد بين المحاربات بأنها برزت بعد انتهاء أزمان المعجزات وانقشاع ظلمات الجهل عن أذهان العامة ، حتى كاد الإنكار يضحى خرافة العصر ، كما كان الإيمان الأعمى خرافة ما

غبر من العصور .

فهى لا تستفيد من الجهل والغفلة بين سواء الناس ، وإنما هى تمتاز بمحاربتها للجهل والغفلة والتنطع بين الرؤساء الكبار فى جيش بريطانيا العظمى ومصالحها الطبية . . .

هى أول من « أقحم » أقانيم « النظافة » و « الرحمة » على محراب أساطين الفن الطبى الذين يشرفون على المستشفيات العسكرية ، وهى أقانيم طالما رأوها لا تتناسب مع ما تقتضيه الجندية من الصرامة والغلظة التى يدعونها تقشفاً ونظاماً . . . وما كانوا يرون النقد أو التنبيه مما يتفق وما لهم من خنزوانية وغطرسة يدعونها هيبة وسلطاناً ، ولكن فلورنس انتصرت على الغلظة والصرامة والغطرسة التى كانت تتحصن بمراكز أصحابها الكبيرة ورتبهم العسكرية العالية ، فقلبت نظم الجيوش فى العالم كله وفق ما وضعته من القواعد لصيانة أرواح الجنود والترفيه عنهم .

* * *

ويخطىء من يحسب أنها كانت فتاة شاعرية النزعة ، حالمة النظرات ، رقيقة الحاشية ، حيية الحديث ، ناعمة الصوت ... ترف الابتسامة على شفتيها ، وتسارع الدموع إلى وجنتيها ، ما دامت صورتها مقترنة بالرحمة والمواساة . . .

كلا !

بل إنها أعظم من آدم ، لأنها آدم على غراره فى القوة والصلابة ، ولكنها تبزه عزيمة ولدداً . . .فهى صارمة ، قاسية على نفسها ، وعلى أعدائها ، وعلى من يعملون معها ، ليس فى جانبها لين ، ولا فى حاشيتها رقة ، وإنما هى بالجنود المحترفين والقواد العسكريين أشبه : تعمل فى جد ، وتشتط فى طلب النظام والدقة ، وتعاقب من يتهاونون فى نصرتها بما يعاقب به الجبناء والهاربون من الجنود فى الميدان . . .

وما كانت مؤهلة لهذه الصفات الغريبة عن مألوف طبائع الإناث بشيء من عناصر الوراثة أو البيئة . فهى غنية غنى واسعاً ، من أسرة مترفة من أسر العلية فى العهد الفكتورى ، الذى كانت للأنساب فيه قيمة وأى قيمة ، فهى على صلة بحكم أسرتها بأكبر الأسر ذات السلطان فى عالمى المال والسياسة. وأخواتها وقريباتها تزوجن وأنجبن، وكان المفروض أن تنهج نهجهن هذا ، ولكن شيئاً أعظم من ضغط العرف والأهل والميول الفطرية الشائعة بين أفراد الجنس كان يدفعها إلى العزوف عن هذا السبيل ، لأن رسالة أخرى كانت تنتظرها ، لا يقدر على الاضطلاع بها غيرها ، فهى تحتاج فضلا عن الصلابة إلى مدد من المال والاستعانة بأهل النفوذ . . .

لقد فطرها الله للتمريض لا للأمومة ، فهى منذ طفولتها

تعنى بإصلاح العرائس التى تمزقها أختها ، وتضمد قدم كلبها وتضع لها الجبائر كأنه من البشر . ثم إذا أيفعت كان حلمها الأكبر أن ينقلب بيتها الريفى مستشفى تديره هى وتشرف عليه دون كلال بالليل والنهار ؛ بل أنها كانت تتصور الجنة فى خلدها حافلة بالمرضى الذين يحتاجون إلى مواساتها وعنايتها !

وأسلمتها هذه الأحلام فى سن الشباب الباكر إلى ضرب من القلق اختلط أمره على أمها إذ حسبته الشوق إلى الزوج الذى تطمئن إلى كنفه . ولكن ما كان أشد عجب هذه الأم الطيبة القلب حين وجدت ابنتها لا تهتم أدنى اهتمام بالجنس الآخر وما يتيحه للمرأة من مناعم ذاتية واجتماعية .

وأبدت فلورنس رغبتها فى الالتحاق بمستشفى للتمرن فيه على التمريض ، فكأنها رغبت فى احتراف خدمة البيوت أو ما أشبه ، لأن الاستنكار كلن شديداً ، والدهشة والجزع كانا بالغين . فما كانت مهنة التمريض يومذاك من مهن بنات الأوساط ومن دونهم شيئاً ما ، فضلا عن بنات الأسر النابهة ، بل هى مهنة العجائز من أحط الطبقات أو الشواب من أشباه الغواهر ، فإذا كانت النظرة إلى التمريض قد اختلفت اليوم عن هذه النظرية الشائنة ، فما ذلك إلا من فضل هذه الفتاة الباسلة القوية العزمات . . .

ولم يفت من عضدها هذا الصد . بل ظلت السنوات الثمان التاليات تهتم بجمع المعلومات الفنية عن التمريض ، كأنما هى على يقين فى داخل سريرتها أن العالم سيحتاج يوماً إلى هذا الزاد الكثير من الدراية الفنية الدقيقة بهذه المهنة المهملة المزدراة . بل أنها استطاعت أثناء رحلات أسرتها المألوفة فى باريس وروما وكارلسباد أن ترتاد مؤسسات الراهبات وأن تتمرن على يدهن ، بل إن إحدى هذه المرات زادت على ثلاثة شهور فى مستشفى « كايزرڤرث » فى ألمانيا . وكان لهذه الفترة أكبر الأثر فى معرفتها بالتمريض عملياً ، ودراسة ما ينقص أنظمته من عوامل الإحكام .

ثم عرضت لها تجربتها الكبرى ، إذ برزت غواية الدنيا تساومها على رسالتها التى تحسها مفروضة عليها بقوة غالبة باثقة من أعماق نفسها ، وذلك فى صورة رجل أنست نفسها تميل إليه كأقوى ما تميل امرأة إلى رجل ، وطالبتها الطبيعة بحقها المحتوم . . .

ولكنها صمدت وقاومت مقاومة عنيفة ، وتمكنت فى النهاية من اطراح هذه الغواية لتخلص لغايتها المبهمة ، التى تشعر بها باعثاً ولا تشعر بها هدفاً ملموساً .

ومرت أعوام ثلاثة أخرى ، تبين خلالها لأسرتها أنها بلغت

من السن مبلغاً لا يتسنى معه أن يلوى عنانها عن غايتها التى اختارتها ، فتركت وشأنها ، وأتيح لها أن تشرف على دار للتمريض فى حى الأطباء فى مدينة لندن . . .

ولكنها لم تسلخ فى هذه الدار عاماً واحداً حتى دق القدر بابها وصاح بها :

ــ إن الذى تنتظرينه قد حدث ، وهذا وقتك قد حان لتقومى بما طال له استعدادك .

إنها حرب القرم ، والمستشفى العسكرى فى « اسكوتارى » مكتظ بالجرحى ، والأحوال فيه ليست مما تسر له القلوب سواء بدافع الإنسانية أو بدافع المصلحة الوطنية . و « سيدنى هربرت » صديق فلورنس يومئذ وزير ، لهذا أهيب بها أن تخف إلى الأناضول على رأس فريق من الممرضات « لتساعد الهيئات الطبية العسكرية » . . .

وكانت فلورنس فى ذلك الحين فى الرابعة والثلاثين ، قد تم نضجها ، واستوى عودها ، فلا هى شابة خرعة ، ولا هى كهلة متداعية .

ولم تكن الحالة كما صورها مراسل التيمس فى اسكتارى سوءاً وفوضى ، كلا ! بل كانت أسوأ مما صورها بكثير . فلم تكن هناك استعدادات طبية مرتبة من أى نوع . فما كان

يخطر لذوى الشأن فى ذلك الحين أن الحرب تحتاج إلى أسرة وأدوية وملابس داخلية وضمادات وآنية للتطهير والطعام والغسيل حاجتها إلى البارود والقذائف والبنادق . لهذا ذهبت الجيوش الإنجليزية إلى القرم وكل عدتها من التطبيب طبيب ضابط كبير الرتبة ، وبضعة أطباء ، وبضع أدوات للجراحة وكفى... فلا أفرشة للسرائر ، ولا ملاءات ، وأما فرش الاسنان فهى عنقاء الخرافة فى ظن هؤلاء السادة . . . وكذلك الملابس الداخلية التى لا غنى عنها لطريح فراش جريح يجب أن يكون جسمه نظيفاً لكى لا يتطرق إلى جرحه الفساد . . .

وما ظنك بمستشفى إسكتارى ، وهو المستشفى العسكرى الرئيسى فى تلك الحملة !

إنه فى ضاحية من ضواحى إسطنبول ، ينقل إليه الجنود عبر البحر الأسود بعد أن يسعفوا بعلاج مبتسر فى مستشفيات الميدان المتنقلة . وكانت تلك الرحلة وحدها عذاباً أقسى من عذاب الجراح البالغة والحرب الضروس . فهى رحلة كانت لا تستغرق فى الأوقات العادية أكثر من أربعة أيام ، ولكنها كانت تستمر أسبوعين أو ثلاثة ، والجرحى أكداس على ظهر السفينة وفى داخلها ، يتبادلون العدوى ، ويعانون من القذارة والإهمال أكثر مما يعانونه من إصاباتهم الأصلية . ينامون على

الأرض ، بلا غطاء ولا وطاء ، وأحياناً بلا ثياب ، إذا كانت ثيابهم الأولى قد بليت أو ذهبت بها عوارض القتال ، فليس عجيباً أن تصل نسبة الوفيات بين هؤلاء المساكين إلى ٧٤ فى الألف ، يلقى بهم فى عرض البحر قبل أن يصل الركب إلى شاطئ إسطنبول .

ولكن إذا عرفت الحالة على الشاطئ ، لم تأس على من هلكوا قبل بلوغه ، وربما غبطوا على هلاكهم السريع . . .

فالنقلة من الميناء إلى المستشفى لا تتم على نقالات ، اللهم إلا لذوى الجراح الخطرة . أما الباقون فيحملهم الجنود الناقهون أو يجرونهم على سفح التل الذى يجثم فوقه المستشفى . . .

ولا تحسبن أن عذاب المساكين ينتهى عند أبوابه . . . كلا. بل كأن أبوابه تلك هى أبواب الجحيم التى يروى « دانت » أنه قرأ فوقها هذه العبارة

« أيها الداخلون ! ودعوا آمالكم ! »

فالداخل مفقود . والخارج مولود . . .

فالبناء عتيق لا يصلح لسكنى الأصحاء فضلا عن المرضى : حيطانه متداعية قذرة ، وأرضه نخرة ، وأبهاؤه معتمة ، وغرفه مهجورة مظلمة ، والقذارة ملكة متوجة على جميع أرجائه المترامية الأطراف . أجل المترامية الأطراف فى ظاهر الأمر ، ولكنها

ضيقة إذا قيست بالعدد الضخم من اللائذين به . فطول الأسرة فيه أربعة أميال ، وقد صفت متلاصقة لا يكاد المرء يستطيع المرور من بينها .

وأما الأدوات فيكفى فى الكلام عنها أن يقال إن المناشف والصابون والطسوت كانت أشياء لا وجود لها فى ذلك المستشفى العتيد . وكذلك الأطباق وأدوات الأكل والمكانس والمقصات . أما أدوات المطبخ والوقود فكانت قليلة جداً . . . فلم يكن هناك شىء وفير إلا القذارة ، والفوضى ، ومئات المرضى . . المرضى الذين لا يستطيعون تغيير ملابسهم ولا غسلها ، لأنه لا مغاسل . ولا يستطيعون تغيير ضماداتهم ، لأن الضمادات قليلة .

وكان دون القضاء على هذه المخازى تراث ضخم من تقاليد العمل الحكومى الذى يتميز بالتراخى والجمود وضيق الأفق والتعنت.

هذا هو الجو القاتم القابض الذى وجدت فلورنس نفسها مكلفة بالكفاح فيه . وكانت قد سألت المختصين قبل أن تبرح لندن ، فكان الجواب أن فى المستشفى كل ما يلزم من الأدوات والأدوية ، وأنه لا ينقص المرضى شىء تحتاج إلى أخذه معها. ولكن إحساسها هداها أن تخالف هذه المعلومات ، فاشترت من مارسيليا كمية هائلة من المئونة والعقاقير كانت ذات أثر

كبير فى تدارك الحالة عند وصولها .

ويخطىء من يظن الرؤساء الأشاوس قد رحبوا بما جلبته معها من معونة ! كلا ! إذ كيف يقبلون أن يقال إن إدارتهم السنية كانت بحاجة إلى مساعدات « أهلية » ؟ دون هذا وتهدر كرامة « الميرى » . . . وللميرى أسود تغضب له ، لأنها تعيش على سمعته الجوفاء !

لهذا تصدى لها رئيس القسم الطبى ومعاونوه ، وأبدوا لها جفوة منفرة . وأعانهم على هذا سفير إنجلترا فى أسطنبول ، حتى أنه أريد الحيلولة بين مندوب « التيمس » وإنفاق ما جمع بالاكتتاب العام للترفيه عن الجنود ، واقترح عليه أن يشيد به كنيسة إنجيلية فى « بيريه » من بلاد اليونان !

وهنا ظهرت مواهب فلورنس .

فلو كانت رقيقة خرعة لفشلت ، ولكنها كانت من معدن أعدائها رجال الحرب ، ففل حديدها حديدهم ، لأنه حديد أصيل يقوم على قوة الحق وقوة الشخصية وقوة الخلق ، لا على جاه المنصب والعزة بالسلطان وكفى !

فبالصبر وعدم الاكتراث للعقبات فرضت وجودها على المستشفى فرضاً ، فإذا الجنود يتمتعون بأدوات صحية ضرورية لم يكونوا يعهدونها من قبل فى ذلك البناء الكريه ، وبدأت النظافة

تطل برأسها فى الطعام ، والأرض ، وأغطية الفراش والملابس . فقد خرجت فلورنس عن ٧٠٠٠ جنيه من حر مالها ، وهى يومئذ ثروة ضخمة — عدا أموال أخرى أرسلت إليها من الشعب المتحمس لرسالتها ، لشراء صحاف ، وأدوات للغسيل ، وملابس داخلية ، وملاءات ، وأربطة ، وصابون ، واستأجرت منازل بأسرها يعمل فيها زوجات الجرحى فى غسل الملابس ورتقها ، وبلغ ما اشترته فى دفعة واحدة ٢٧ ألف قميصاً .

كان عليها أن تكسو الجيش البريطانى — على حد تعبيرها — وأن تدبر وحدها وسائل العناية الصحية لأكثر من ألف مريض فى وجه مقاومة يحسب حسابها من المسئولين وأهل السلطان .

كانت لا تنام الليل ، بل تنفقه فى كتابة التقارير والرسائل ومراجعة الحساب ، وتنفق النهار فى تدبير الوسائل وتنفيذها ... أما المواساة نفسها — وهى أكبر ما حسبه الناس من أعمالها — فلم تكن إلا قلامة صغيرة بين أعمالها المضنية وجهودها العنيفة.

ولم يكن المطبخ أهون من عنبر التمريض وحجرة العمليات شأناً ، ففيه اصطدمت « بالروتين » الحكومى الجامد كما اصطدمت به فى الطوابق العليا ، فلائحة الجيش تمنع تخليص اللحم من العظام ، وتنص على تقسيم اللحم على حسب الحجم ، فقطعة منه تكون لحما خالصاً ، وأخرى تكون عظما بغير لحم ...

ولا ضير ـــ ما دامت اللائحة لم تخرق ـــ أن يموت المريض أو الناقه لنقص تغذيته عما ينبغى له !

هذا فضلا عن سوء الطبخ ، كأنما الطعم المقبول مما لا يتفق وما للسمت العسكرى من مهابة وخشونة !

أجل كان المغسل والمطبخ هما أشق ميادين كفاحها ، وقد أدركت هذا بعبقريتها العملية ، على خلاف تابعاتها وصواحبها من « زهرات المجتمع » اللواتى كن يذبن رقة ويتحرقن شوقاً إلى وضع أيديهن على جباه المرضى وهن يذرفن الدمع . . .

أما فلورنس الصارمة فكانت تقول لهن قبل أن يصلن إلى إسطنبول :

ــ إن الطست هو معركتنا الأولى التى سنخوضها : وفى ساحته سيطلب أكبر قسط من العمل والمجهود . . .

ولكنها على صرامتها كانت أفعل أثراً فى المرضى من الرقيقات الباسمات . إنهم كانوا يلمسون فيها حرارة الإخلاص والمحبة الخشنة خشونة الصدق والمضاء . فكانوا يطيعونها ويتشجعون بمرآها ويتعلقون بخيالها ووقع خطاها كأنها قديسة من قديسات الأساطير . وإذا احترامهم لها يدفعهم إلى التأدب فى الخطاب مع تفشى البذاء فى طبقات الجنود لذلك العهد ، فما تذكر أنه وقع على سمعها لفظ ناب طول تلك الفترة .

فما أنقضت على وصولها ستة أشهر حتى كان كل شيء قد أصبح على ما يرام . فأولت الميدان العسكرى عنايتها ، وفكرت فى زيارة مستشفياته المتنقلة بنفسها . وهى مهمة شاقة إلى أبعد حد : بسبب وعورة المسالك ، وصعوبة المواصلات ، وحدة الطقس ، وانعدام وسائل الراحة فى الحل والترحال . فالثلج لا يكف فى تلك الفترة عن الهبوط ، وقد يكلفها الانتقال من مركز إلى مركز أن تمشى تحته طول النهار على قدميها بغير انقطاع .

ولكن هذا لم يفت فى عزيمتها ؛ فزادها من الاحتمال والمقاومة عظيم . . . إلا أن لكل شيء آخراً يقف عنده ولا يعدوه ، فأصابتها الحمى ونال منها الكلال . حتى ظن فى بعض الأحيان أنها على شفا الموت . ومع هذا لم تكف عن العمل ، وعن الكتابة ، حتى عجزت يدها عن حمل القلم . ولما أبلت من مرضها شيئاً ما ، قيل لها أن تعود إلى إنجلترا ، ولكنها أبت إباء شديداً ، وأصرت على البقاء فى « اسكتارى » . . .

ولما همت بزيارة أخيرة للميدان ، خطرت لرئيس القسم الطبى فكرة عبقرية لوقف نشاطها وإذلال كبريائها وقهرها : أن يأمر المراكز الطبية التى تزورها أن تمتنع عن صرف أى نوع من الغذاء إليها وإلى من معها ، فإن الجوع قد يفلح معها

حيث لم تفلح المقاومة الإيجابية .

إلى هذا الحد بلغت العداوة بين هذه المرأة الباسلة القوية فى الحق والرحمة وهؤلاء الرجال الصناديد ، الذين ينتسبون إلى طائفتى الجنود والأطباء فى وقت واحد . ولعل هذا يكفى للتدليل على مبلغ وهم من يحسبون روح العسكرية صنو الشجاعة والأريحية وأن الطب لا يقوم إلا على الشفقة والإيثار . . . وإنما هى فى الواقع صناعة كأى صناعة ، لا تبلغ بأصحابها ما لا يبلغونه بأنفسهم من صفات الكمال . . .

إلى هذا الدرك إذن انحدر الضابط العظيم والطبيب الكبير فى محاربة امرأة شجاعة تجردت لخدمة المرضى ، ولكنها كانت أقوى منه بأساً كما كانت أعلى منه باعثاً وغاية وخلقاً ، إذ تحوطت للأمر دون علم سابق فأخذت معها زاداً محفوظاً كفاها ورفاقها الحاجة إلى طعام ، فأتمت رحلتها مع الأناة والتطويل ، وجرعت خصمها غصص الغيظ . وما كان رفاقها خمسة أو عشرة ، بل أربعة وعشرين ممرضة . . . تركن بلا طعام وأمدتهن هى بحسن تدبيرها بما يلزمهن أياماً كثيرة . . .

وهكذا انتصرت فلورنس على طول الخط . . .

انتصرت ، وسجلت بانتصارها مرة أخرى أن العامل للخير يخطئ إذا ظن الناس سيسارعون لمعونته ، وإنما هو حرى أن

يوطن النفس على أن معظم القوى ستتصدى لحربة تطوعاً ولغير علة ظاهرة . . .

وأبت نفسها الكبيرة أن تبرح اسكتارى إلا بعد أربعة شهور من الصلح ، ريثما رحل عنها آخر جندى جريح ... فاستقبلت فى بريطانيا استقبال الغزاة وحيتها الملكة بهدية فاخرة . . . هى عليقة من الماس عليها هذه العبارة « طوبى للرحماء » .

فهل استكانت للراحة بعد هذا الجهاد الشاق ؟

كلا !

بل بدأ جهادها الأمر ، لتغيير النظم الأساسية فى القسم الطبي بالجيش ، ولتأسيس مدارس للممرضات المثقفات النظيفات للخدمة فى جميع المستشفيات ، ولوضع أسس علم التمريض بمعنى الكلمة على نهج علمى صحيح .

جاهدت فلم تدع لنفسها راحة ، ولا لأصدقائها : تعقد الاجتماعات ، وتزور الملكة ورئيس الوزارة ، وتؤلب الرأى العام على كبار الموظفين الذين يعطلون الإصلاح ، وتكتب تقريراً عن مأساة اسكتارى عدته ثمانمائة صفحة من البنط الدقيق ، هو أوفى سجل إحصائى لمشاكل التمريض فى الميادين...

ظلت تكافح حتى مات « سيدنى هربرت » صديقها الوزير تحت وطأة الإجهاد الذى كانت تلزم به أصدقاءها إلزاماً

لا هوادة فيه ، حتى كان من يفكر فى الراحة منهم يعتبر فى نظرها مجرماً خائناً للقضية ؛ فهى نفسها كانت مريضة ، ولكنها لم تكف لحظة واحدة عن الكفاح .

وأخيراً تألفت لجنة عليا لإتمام الإصلاح المنشود ، وتأسست مدرسة فلورنس نايتنجيل لتخريج الممرضات .

ولكن اللجنة — ككل لجنة حكومية — جعلت تتلكأ ، فوالتها بالحملات العنيفة حتى أتمت عملها بعد لأى .

وكان اسم فلورنس قد لمع فى العالم كله ، وأصبحت مستشاراً عالمياً فى مسائل التمريض وهندسة المستشفيات وإعدادها يطلب رأيها أهل ألمانيا وأمريكا وفرنسا والهند ، وسائر البلدان... حتى رأت بعينيها ثمرة انتصارها تعم العالم أجمع وهى فى أواخر العمر . . . وكرمها إمبراطور ألمانيا ، كما كرمتها حكومة بلادها وصار بيتها كعبة للعظماء ، السعيد منهم من أذنت بمقابلته — وهى يومئذ مشلولة الساقين — فى الوقت الذى تشاء . . .

ولكن الإنسان ضعيف . . .

فإن الطبيعة التى قاومتها بنجاح عشرات السنين تربصت لها حتى ضعفت فى أواخر العمر ، وأطلت برأسها تطالبها بحقها المطول . . . وبدأ هذا الهيكل القوى العصبى على الشهوات وضعف البشرية الفانية يتداعى لترقص على أطلاله شياطين

قميئة شائهة الوجوه . . . على هيئة ميول منحرفة من المجاهدة الشيخة نحو الفتيات اللواتى يلتمسن من محرابها نور القدوة . . .

ولكنه الضعف الذى يعطف القلوب ، لأنه آية نفاد القوة ، وما نفدت إلا فى نصرة الخير ومحاربة جحافل من الغباوة والقسوة والفساد . . .

وهكذا تكون العبقرية فى بنى الإنسان ، من النساء أو الرجال ، قوة دافعة للإنسانية فى مراقى الكمال ، للعالم خيرها ، وعلى أصحابها ضيرها وبوارها . . . كما تحترق الشموع لتنير للناس...

٣ — يوديث

ولئن كانت « چان دارك » مثل الشجاعة التى تستمد من عليين . ولئن كانت « فلورنس نيتنجيل » مثل الشجاعة التى يساندها الخلق القوى والطبع الركين ، فإن من النساء من حاربن بمدد أعلى من بواعث الطبع ومشارب الفطرة . فكانت شجاعتهن أعلى من نداء البقاء ، ومن نداء النوع ، ومن سلطان الفطرة ، ولو كانت فطرة الأمومة . . . وذلك نمط من البطولة فريد . يعلو بمثاله فوق رؤوس بنى آدم جميعاً من النساء والرجال . وقد ضربته للناس أم مجرية من غمار العامة فى بعض قرى الحدود . . .

* * *

... صمتت المدافع وخفت صوت المعركة ، وسقط الشجعان صرعى فى الميدان الذى بسط عليه الموت ظله ، بعد أن ظل حامى الوطيس سحابة النهار ، فلم يعد يسمع هناك صوت إلا أن يكون قصف الرعد أو أنين الريح .

وعند أبواب القرية ، حيث كانت البيعة تملأ رحبتها شواهد القبور البيضاء ، احتشد النساء يأكلهن القلق الممض متلهفات — لا على الأزواج والأبناء والأحباب — بل على أنباء القتال وبشائر النصر ...

وكن جميعاً — من أمهات وعذارى وذوات بعول — يتنفسن عن أمل واحد : أن يعود الرجال يكللهم النصر ، أو لا يعودوا قط . فما تود واحدة منهن أن تبقى الهزيمة على رجل حى — مهما كان عزيزاً عليها — ليحمل إليهن نبأها المشئوم .

وعلى عتبة البيعة جلس شيخ نيف على التسعين ، ذهبت السن ببصره وأوهنت عظمه ولسانه . وكان هو أيضاً فى انتظار ما ينجلى عنه اليوم العظيم ، وإلى جانب الشيخ فتى مقعد جارت عليه الأيام فى واحدة من ساقيه وفى ذماء عافيته ، فهو لقى لاحول له ولا طول .

وإنه — مع هذا — ليحس قلبه قد فارق حنايا صدره ليشهد

الوعى مع المصطرعين فى الميدان ، وهو لا يفتأ يقول للشيخ بلسان حسير ممرور :

ـ لماذا قضى الله علىّ ألا أكون فى المدافعين الكماة ؟

فيقول له الشيخ شيئاً مما يرد على ذهنه المكدود ، عن قضاء الله وإرادة الله والخفى من حكمة الله . . .

وفى ظل شجرة من أشجار السنط انفردت عن الجمع أنثيان : كبراهما فى نحو السادسة والثلاثين ، لم تطمس أمارات الجد والصرامة فى ملامحها مسحة من الجمال الرائع ، وقد أضفى الشحوب والتماع الحماسة فى عينيها الحوراوين روعة على محياها وأيما روعة . فقد كانت « يوديث » مثلا كاملا لبنات جنسها : قوة بنية ، وشدة أسر ، وبقاء رونق على العفاء عزيز .

وقد أحاطت بجيدها خود فى السادسة عشرة تلوذ بها ، ذهبية الغدائر زرقاء المقلتين ، بهيفة القد ، فكأن « أرانكا » وهى ملقية على « يوديث » عبء ما ناءت به من أمل ومخاوف ، زنبقة أحنى عودها اللدن هبوب النسيم . . .

وكانت « ارانكا » خطيبة ولد « يوديث » الوحيد ، الذى كان يخوض فى هذه الساعة معركة البلدة ضد جيش الأعداء من فرسان القوازق العتاه . .

وأخيراً قالت « يوديث » وهى تومئ إلى السهل المترامى :

ــ أما ترين شبحاً يدنو ؟ . .

فحدقت « أرانكا » ، ولكن أنى للعيون الزرق أن تتبين فى غبشة الأصيل ، ما تستشفه العيون الحديدة السوداء !

ولكن الشبح ما زال يدنو حتى اتضح رسمه ، فتضرجت وجنة الفتاة بحمرة الحب وتلهب وجه الأم بنيران الغضب، وهمست أرانكا وهى تضغط على قلبها بيدها :

ــ أنه هو .

وصرخت « يوديث » مر وعة :

ــ وبلا سلاح ! ؟ . .

وسترت عينيها بكفيها ، وقد أشاحت بوجهها عنه . .

ودنا الشبح واهن الخطو ، رأسه مدلاة على صدره ، وكأنه يجد للحركة ألماً . فلما رأى النسوة فى رحبة البيعة يمم شطرها فعرفن فيه ابن « يوديث » فاجتمعن حولها فى انتظار وصوله وكان خندق البيعة يفصل الأم وصواحبها عن فتاها ، فلما أعياه العبور خر أمام الضفة ، فانكشفت للناظرات حقيقته ، فإذا ثيابه ممزقة ملطخة بالدماء ، ويداه ــ كلتاهما ــ على موضع جرح فى صدره . فصاحت به أمه بصوت صارم ، وقد تقدمت الجمع :

ــ أين تركت سلاحك ؟

وكان فى مقدوره أن يجيبها — صادقاً غير متحرج :

— تركته فى صدر عدو وطنى . .

ولكنه لم يستطع أن يقول تلك الكلمة ، لأنه وجدها غير شفيعة له فى الحياة مع الذل ، ثم أنه لم يجد فى نفسه فضلة من القوة للنطق .

— تكلم يا فتى ! هل دارت الدائرة علينا ؟

— . . . .

— ولماذا إذن عداك مصير الشجعان من لداتك ؟ لم تركت الشمس تطلع على خزيك وعارك ؟ لماذا عدت ؟ . . .

— . . .

— إن قد كنت عدت لندفنك هنا ، فقد خدعت يا مسكين نفسك بالأباطيل . وأولى لك أن تنشد قبراً حيثما يكون الموت مجداً ومفخرة : هناك فى ساحة الوغى ! اذهب ! فليس بين قبور موتانا الشرفاء مكان لمثلك ! اذهب عنا ولا تذكر للناس أنك ولدت فى هذا البلد .

وسكتت الأم ، وقد وضعت يديها على وجهها الملتهب بنيران الغضب والقهر ، وأجال الفتى بصره فى النساء كافة فلم يجد نظرة عطف ولا بادرة رحمة ، فيئس أن يكون فى الجمع كله نصير أو عذير ، حتى عروسه ، فدار على عقبيه وعاد

من حيث أتى ، فأخذ ظله الباهت يتضاءل رويداً رويداً ، وهو يعبر الغاب إلى السهل الذى يليه ، يتعثر فيقوم ويجر ساقيه المتداعيتين جراً حتى بلغ الأجمة فسقط على الأرض يلتمس فى جذع شجرة ألقتها الريح سنداً ، ولكن رقدته هناك طالت حتى نزف دمه وأصبح إلى جانب الجذع الملقى جذعاً آخر لفظته الحياة وتلقفه العدم .

* * *

ولقى نفس هذا المصير أولئك النفر القلائل الذى عادوا من المعركة أحياء . . .

* * *

ولما ثبت أن المعركة قد خسرتها البلدة ، وأن الغزاة سيجتاحون أرضها ويدوسون حماها ، علا بكاء النسوة حتى بلغ أعنان السماء فسأل الشيخ الأعمى ما الخبر ، فقيل له :

— لقد ضاع الوطن ، وهلك بنوك وحفدتك مع قائدهم ورفاقهم فى السلاح ، فلم تبق منهم باقية .

فخر الشيخ على الأرض ، وارتفع عنه العمى ، لأن النور الأبدية قد أشرق على روحه :

لقد مات . . .

واجتمع النسوة حول جثمانه يندبن ، فلا يندبن الشيخ الذاهب

ولا الأزواج والبنين ، بل أرض الوطن التى أضحت مستباحة للغاصبين بعد أن سقط دونها الحماة .

وتكوم الفتى المقعد عند رأس الميت ، وقد أخذ قلبه يتنزى لندب النسوة ، وهن يصحن مولولات :

ـ اليوم مات آخر الرجال . .

فاستبد به الكمد ، ولم تدمع له من شدة القهر عين ، فهو موجود كلا موجود ، لأنه موجود غير معدود . . .

وهكذا انقضى الليل . . .

فلما آذنت خيوط الفجر الأولى أن تطلع ، سعت « يوديث » إلى حيث تكوم الفتى ، فانتحت به جانباً وشرعت تتحدث إليه مترفقة به حانية عليه :

ـ أيجمل بك يا « داود » أن يكون جدك ميتاً مسجى بين ناظريك ، يندبه الناس من حوللكٍ ، ولا تذرف عينيك دمعة واحدة ؟ ما بك ؟

فسكت ولم يجب . . .

فعادت تقول :

ـ لقد رأيتك أمس تتقلب فى رقدتك كأنك ترقد على شوك ، فلم تنم من ليلتك لحظة ، فأنت إذن موجع يسهدك الألم فكيف تتوجع ولا تبكى ؟ إبك إذا ألمت فلا حيلة للموجع

غير البكاء ، وما أراك يهنأ لك عيش وأنت لا تنفس عن نفسك . .

ـ كيف أبكى يا عمتى « يوديث » ، ومن لى بالمبكاء ، وأنا أرانى مما عناهم الشاعر بقوله :

لا كالرجال ولا كالغيد ، قد صفرت

أكفهم من حلى بأس وحناء . !

فلست رجلا أحمل السيف وأدفع ضريبة الرجولة للوطن . ولست أرانى يليق بى البكاء شأن النساء .

ـ وهل إلى هذا الحد بلغ بك الأسف لأن الموت قد فاتك ؟

ـ وهل تسمين ما بى أسفاً على فوات الموت ؟ بل سمه أسفاً على الحياة التى لا تشرف صاحبها ولا تترك الموت يشرفه بدلا عنها ! لقد عافتنى حياتى يا عمتى « يوديث » ، ولم ينقذنى الله كما تعطف على جدى فاختاره لجواره حين أضحت الدنيا أحلك فى عين الكريم من ظلمة القبر . . .

فأطرقت يوديث لحظة حتى لا يراها تنظر إلى وجهه المكفهر المربد من أثر السهاد والغيظ والهوان ، ثم رفعت رأسها وثبتت عينيها فى عينيه ، وقالت بصوت هادئ يقطر رقة وعطفاً ؟ .

ـ يا داود ! إن كنت صادقاً فى تشهى الموت ، فأنت لا شك ترضاه لو عرض عليك . . .

فقال فى لهفة ظاهرة :

ــ وكيف لى به يا عمتى ؟ لا تهزئى بى . فلم يخلق فى الدنيا رجل يرضى أن ينزل بنفسه إلى قتل « جيفة » مثلى كالعجاوات أو أقل . . .

ــ كلا يا داود ، لست أهزأ بك ، وحاشاى أن أفعل . فأنا مقدرة كل التقدير شعورك النبيل بقدرك القاسى . ولكنى أعرض الموت عليك حقاً وصدقاً . وأعرضه عليك فى أمجد صورة يمكن أن يحلم بها بطل صنديد من أبطال الأساطير ، وفى أبهى إطار تشارك الأرض والسماء فى رسم ألوانه وأطيافه .

ــ كيف ؟

ــ . . ميتة يصحبك فيها ، فى موكب رائع ، كل عزيز لديك فى هذه الدنيا ، كأنه يحرق البخور بين يديك قربى إلى جثمانك وزلفى . .

ــ لست أفهمك يا عمتى ؟

ــ . . . هه ! وقد لا تفهمنى أبداً ؛ فحياتك لا تزال على شقاوتها وقلة حظك منها شهية فى عينيك ، وعكازتك فيما يلوح أحب إليك من جناحى إله من الآلهة الخالدين . .

ــ بالله يا عمتى لا تذكرى هذا ، فكم تمنيت أن أشترى بالبغيض من حياتى ميتة أشتهيها وأنفس عليها الأبطال .

— اسمع إذن : « . . . .
» . . . .
» . . . . «

* * *

ثم قادته من يده ، والحماسة تكاد تخرجه من إهابة ، إلى برج البيعة حيث الناقوس الكبير ، فدخل وغلق دونه الأبواب، ثم ألقى إليها بالمفتاح من كوة فيه ، وهو يصيح بها :

— خذى هذا المفتاح . فما بى إليه حاجة .

وجلس إلى نافذة البرج يرقب الأفق البعيد . وعادت « يوديث » إلى مأتم الشيخ ، أو مأتم البلدة ، فأشارت إلى النساء أن يرقأن الدمع ، ويلقين إليها السمع ، ثم انبرت تقول:

— لقد امتحنتنا الأقدار فعشنا وقد ذهب خير العيش كله مع من ذهب ، فلا خير فى عمر — وإن طال — بعد إذ كتب علينا ألا نسترد فيه من فقدنا ، وإنما قصارى هذا العيش أن تقوس السنون ظهورنا فى الهم والحسرات — فلا حظ لنا وايم الله من هناءة إلا هذا الذى أضحى ودونه جندل وصفائح ودمع نائح — وأن نرى عدونا يغشى ديارنا وهو آمن ، وإن الموت لخير من هذا الذى ينتظرنا . . فاذهبن إلى بيوتكن فأعددن الحطب للنار ، وضعن على الحطب الزيت ليسرع إليه الاشتعال ،

حتى إذا سمعتن ناقوس البيعة يدوى أسرعن إلى هنا لنحمل فقيدنا إلى باب البلدة ونحفر له مثوى فى عرض الطريق المفضى إليها نقف دونه فلا يدخل القرية عدو إلا على أشلائنا . . .

وأنفذ النسوة ما أمرتهن « يوديث » . .

وعند الفجر حان الوقت المعلوم ، فانطلقت دقات الناقوس ترن مجلجلة فى الفضاء : ذلك أن سحباً من العثير قد ظهرت على مرمى النظر فى الأفق البعيد زاحفة نحو البلدة ، فاصطفت النساء دون قبر الشيخ ، ووقفن على أهبة للقاء الزاحفين من العدوة الأخرى للطريق . . .

وما اقتحم المغيرون الطريق حتى استعر القتال استعاراً شديداً، ودار فى القرية داراً داراً وحجراً حجراً ، حتى كان المساء ، فباتت القرية كلها فى قبضة العدو ، واطمأن إلى غنيمته التى جمتها النساء بعد الرجال . . وإذا النار تنشب فى سقوف الدور جميعها فى وقت واحد كأنها هبطت من السماء ، وزئير الريح يزيدها ضراماً ، حتى اشتعلت البلدة من أدناها إلى أقصاها ، وقد ارتفع عويل « المنتصرين » إلى عنان السماء ! ولكن كان يعلو على أصواتهم الفزعة الجازعة صوت ناقوس البيعة ، التى كانت قذائف الزيت المشتعل تتوالى من برجها فتشعل الحرائق يمنة ويساراً أينما حملتها الريح ، وقد اختلطت فى الجو أصوات

استعار النار وزئير العاصفة المبرقة المرعدة . وأنين الموتى بين اللظى والأنقاض . . .

ثم سمعت دكة قوية . تلاها صمت كصمت الموت . . .

بل إنه كان هو صمت الموت .

فقد تداعى البرج ، وانتهى الغلام القعيد ، بعد أن وفى بنذر « يوديث » أن تأتى على أعداء وطنها غير مبالية فى سبيل ذلك بالحياة ، ولا بما هو أغلى من الحياة عند سائر الأمهات...

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٨٧٦٥
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3554 – 7	ISBN

١ / ٨٦ / ٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

قد يكون أول ما يتبادر إلى الذهن عند الإطلاع على عنوان هذا الكتاب « نساء محاربات » « ماذا جمع الشامي مع المغربي ؟ ! » لأن المفروض أن المرأة والحرب مقولتان مختلفتان . فصنعة الحرب ينهض بها الرجال أما النساء فقوارير رقيقة ودمى لطيفة . فكيف إذن ؟ !

هذا الكتاب يجيب على هذا السؤال

٤٠١١٢٢/٠٢

ص
١٠٠